

الفصل الواحد بعد المئة

تجارة مكة

وكان أهل مكة من أبرع التجار ومن أنشطهم في العربية الغربية عند ظهور الإسلام . وقد أشير الى تجارتهم في القرآن الكريم . وسبق أن تحدثت عن تجارتهم في أثناء كلامي على مجمل الحالة السياسية لجزيرة العرب عند ظهور الإسلام .

وقد استفاد أهل مكة ؛ ولا شك ، من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش اليها ، ومن تردي الأوضاع السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش . فانجسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل ، ووجدت قريش نفسها حرة مستقلة وفي وضع يمكنها من استغلال مواهبها في التجارة ، فقامت بمهمة الوسيط ، تنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية الى أسواق فلسطين ، وتنقل تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط الى الحجاز ونجد واليمن ، وبذلك حصلت على أرباح طائلة عظيمة ، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام ، وصيرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين .

وقد وصف أهل الأخبار أهل مكة بترفهم عن البخل والشح، فقال (الجاحظ) وهو يصفهم : « ومن العجب ان كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الإيلاف والجهاد ، لم يعتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقة

في الطباع ، فأعطوا الشعراء كما يعطى الملوك ، وقروا الأضياف ، ووصلوا الأرحام ، وقاموا بنوائب زوار البيت . فكان أحدهم يحبس الحيسة في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد والداخل والراكب ، واطعموا بدل الحيس الفالودج^١ . فورد الكسب الأول عند العرب في الجاهلية هو الغزو على رأي أهل الأخبار ، وقد ترفعت قريش عنه ، وصرفت نفسها الى التجارة . ومن طبع التجار البخل ومسك اليد ، أما قريش ، فخالفتهم في البخل ، ووصلت الشعراء وقرت الأضياف . ونسب (الجاحظ) سبب تركهم الغزو الى كونهم أهل حمس ديانين ، فقال : « وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فيه من الغضب والغشم واستحلال الأموال والفروج من العرب »^٢ . ويعتقد (الجاحظ) ، بأن للدين أثراً كبيراً على سلوك الانسان وعلى كره الحرب ، إذ تراه يقول : « ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأهم ، وذلك أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تتصرف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالات فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً ، ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة وسرت في لحومهم ودمائهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبين الى أن صاروا مغلوبين »^٣ . فالنصرانية قد أثرت على الروم حتى جعلتهم يكرهون الحروب ، وصاروا مغلوبين بعدما كانوا غالبين . ثم جاء بدليل آخر على إثبات رأيه في ان الدين ينقص من شهوة الحرب ، هو ان (التغرغز) من الترك ، نقصت عندهم الشجاعة وذهبت عنهم الشهامة بعد ان دانوا بالزندقة^٤ . فالدين اذن مخفف من شهوة الحرب مبرد من التعطش الى القتال ، لكنه على رأيه أيضاً ، يحول المتدينين الى أسود في المعارك ، فقريش التي تركت الغزوة بته ، كانوا مع طول ترك الغزو ، إذا غزوا ، غزوا كالأسود مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة، والحوارج

-
- ١ كتاب البلدان (ص ٤٦٨) ، (نشر الدكتور صالح أحمد العلي) ، (مستلة من مجلة كلية الآداب سنة ١٩٧٠) .
 - ٢ كتاب البلدان (٤٦٨) ، (وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال واستحسان الغنوب) ، كتاب البلدان (٤٧٢) .
 - ٣ كتاب البلدان (٤٧١) .
 - ٤ كتاب البلدان (٤٧١) .

على اختلافهم من أحرار وعبيد وموالي يقاتلون قتال الباسل المستميت مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، و « في هذا دليل على ان الذي سوى بينهم التدين بالقتال » ، وان استبسال قريش والخوارج وغيرهم من المتدينين « انما هو بسبب الديانة »^١ ووحدة العقيدة وعامل الدفاع عنها والجهاد في سبيلها .

وقد نسب (الجاحظ) ميل قريش الى التجارة واشتغالهم بها الى تمسحهم في دينهم وتشددهم في الدين ، فقال: « وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغنوب ، فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة والى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »^٢ .

فتحمس قريش في دينهم ، حملهم على ترك الغزو ، وترك الغزو حملهم على التكبب بالتجارة ، فاتجار قريش في مكة وضربهم في الآفاق ، هو بسبب البحث عن رزق يعوضهم عن رزق الغزو ، الذي أبعدهم الدين عن قلوبهم ، فكان ما كان من أمر تجارتهم . هذا هو رأي الجاحظ في السبب الذي حمل قريشاً على الانصراف الى التجارة .

وفي القرآن : « ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »^٣ . فكفة بلد بوادٍ فقر غير ذي زرع ولا ماء ، ليس لأهلها ما لسكان الأرياف والقرى التي تملك المياه والأنهار من ثمرات النبات والأشجار ، فصارت الطائف مصيفاً لهم ، ومورداً يمددهم بثمر النبات والأشجار ، واستغل أهلها فقر واديهم ، وموقع مدينتهم الذي تمر به القوافل ، وشجعوا من كان يسكن حولهم على الحج الى معبدهم وعلى قصده أيام السنة وموسم الحج ، فاستفادوا من الحجاج . وجعلوا الموسم سوقاً يتعاطون فيه البيع والشراء ، فربحوا وصار لهم مال استثماره وشغلوه ، في سوق مكة وفي الأسواق الأخرى ، وتعاملوا مع الأعراب ، وعقدوا الإبلان مع ساداتهم ومع الفرس والروم والحبش ، فصاروا

- ١ كتاب البلدان (٤٧٢) .
- ٢ كتاب البلدان (٤٧٢) .
- ٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٥٢/١٣) .
- ٤ تفسير الطبري (١٥٥/١٣) .

يخرجون الى خارج مكة بأمان بفضل العقود والعهود التي عقدها مع سادات الأعراب ، وهي أهم في نظري من أي عقد آخر عقده مع حكام العراق وبلاد الشام أو اليمن ، إذ كان في استطاعة الأعراب نهب قوافل مكة وسلب أموالها ، وهي ذاهبة أو آيبة محملة ، فلا يستطيع أهل مكة فعل شيء ، ولا تبقى أية فائدة عندئذ لعقود الإيلاف المعقودة مع الحكام المذكورين . وقد علم سادة مكة ذلك ، فتعاقدوا مع سادات الأعراب ، وأدو لهم نصيباً من الربح ، وبذلك أمنوا جانب أعرابهم ، فكانوا إذا تحرش بهم متحرش ، أدبه سادة قبيلته ، واستعادوا منه ما أخذوه من نهب وسلب .

وقوم هم أهل قرار ، لهم بيت مقدس ، ولهم تجارة ، لا يفكرون في غزو ، ولا يرتاحون من وجود أهل شغب وفتن بينهم . فالغزو سواء أكان منهم أو كان عليهم مضرّ بهم : ولا يعود عليهم بفائدة ، بل هو يبعد القاصدين لهم عنهم ، وفي ابتعادهم عنهم خسارة ، ثم هو يعرقل تجارتهم ويحول دون أنجارهم ، والتجارة مورد رزقهم وعليها معاشهم . وقريش من المستقرين ، ومن التجار ، ولهم معبد ، فكان من صالحهم اشاعة الأمن والابتعاد عن التشاحن وفض كسل خلاف يقع فيما بينهم ، أو فيما بينهم وبين غيرهم بالتي هي أحسن ، وجرت الناس اليهم ، والعمل على اكتساب صداقة أهل الحضر وأهل الوبر أيضاً ، وعلى إنصاف الغريب الذي قد لا يجد له مجيراً من بين أهل مكة فيظلم ، وعلى تقديم الرفادة للحجاج الضعفاء ، وإسقايتهم الزبيب المنبوذ بالماء في أيام الحج ، وعلى شراء الألسنة ، ألسنة الشعراء خاصة ، لما كان لها من أثر في النفوس .

وللمنافع المادية التي كانوا يحصلون عليها من تآلفهم مع القبائل ، حرصوا على ألا يؤذي أحد منهم أحداً من الغرباء ، فيشير قوم الغريب عليهم ، لا سيما إذا كان ذلك الغريب من قبيلة تمر تجارة قريش بها . فلما عذب أهل (مكة) (أباذر الغفاري) ، أقبل (العباس) عليهم ، وقال : « ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه من طريق تجارتكم الى الشام ؟ . فأنقذه منهم »^١ . فزهده قريش وعدم ميلهم الى الاعتداء على الغرباء ، لم يكن كما رأى (الجاحظ) عن (تمس) وعن دين ، وإنما كان عن طمع في المال وفي الكسب وفي الحصول على كسب

١ الاصابة (٦٤/٤) ، (رقم ٣٨٢) .

من تجارة تمر بطرق يجب أن تكون آمنة بالنسبة لها أمينة ، ولا يكون ذلك الأمان ممكناً، إلا بتأليف قلوب سادات القبائل ، والحرص على منع أهل مكة من الاعتداء على الغرباء .

بل نجد أهل مكة يجيرون كل غريب حتى إن كان صعلوكاً أو خليعاً أو مستهتراً بالعرف والأخلاق ، أو قاتلاً غادراً ، أملاً في الاستفادة منهم ، وفي عدم التحرش برجالهم إن خرجوا متاجرين يحملون أموالهم لبيعها في الأسواق البعيدة ، ولاستخدامهم في حمايتهم ممن قد يتحرش بهم من الأعداء والأعراب، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء عدد من أمثال هؤلاء ، كانوا قد لجأوا الى مكة وأقاموا بها واستقروا وعاشوا بها مجاورين لساتنها ، آمنين على حياتهم لأنهم في جوار سيد من قریش .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على وجود مستوى راق في مكة ، وفي أماكن أخرى للتجارة والاقتصاد ، وتدل على تنسيق وعمل منظم بين التجار . وقد وردت فيه إشارات الى (رؤوس الأموال) ، وهي الأموال الخالصة التي تشغل في التجارة والتي تعطي أيضاً المحتاجين اليها لتربو ولتعطي صاحبها الربا ، كما وردت فيه إشارات الى البيع والشراء والقروض والرهون والشركات والتكاتب والتعامل التجاري وأمثال ذلك . وكل ذلك قد نظم وهذب وفقاً لقواعد الاسلام وصار أساساً لنظم التجارة والمال في الاسلام . ولهذا تستدعي دراسة النظم الاقتصادية والتجارة في الاسلام الرجوع الى السناد ، وسنادها هو نظمها وقواعدها قبل الاسلام .

ويظهر من كتب التفسير والسير ان أهل مكة كانوا يسهمون في رؤوس أموال قوافلهم التي يبعثون بها الى بلاد الشام واليمن ، وفي الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو جملة أسر ، بل معظم أفراد مكة الأحرار في تلك القوافل ، كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد ساعدت هذه الشركة على إعانة أصحاب السهام وعلى مساعدة أهل مكة في رفع مستواهم المعاشي . وإذا كنا لا نملك موارد نتحدث عن أنظمة تلك الشركة أو الشركات وقوانينها، وعن كيفية توزيع الأرباح بين المساهمين ، وعن أنواع تلك الشركات وأصول حساباتها ووكلاتها في الخارج ، فن الميسور ان نظفر بقدر كبير من جذورها وأصولها في

فصول الشركات والقضايا المتعلقة بتنظيم التجارة في الاسلام في كتب التفسير والحديث والفقهاء خاصة ، ففي هذه الفصول إشارات كثيرة إلى شؤون التجارة والاقتصاد عند الجاهليين .

ويظهر مما ذكره أهل الأخبار وأوردوه عن قوافل مكة ، أن مال القافلة ، لم يكن مال رجل واحد ، أو أسرة معينة . بل كان يخص تجاراً من أسر مختلفة ، وأفراداً وجد عندهم المال ، أو اقترضوه من غيرهم فرموا في رأس مال القافلة أملاً في ربح كبير. فقد ذكروا أن قافلة قريش التي كانت في خفارة (أبي سفيان) والتي أثار معركة (بدر) ، كان رأس مالها مختلطاً ، ساهم فيه كل متمكن من أهل مكة . حتى « لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير »^١ .

ويظهر من سورة (قريش) أن قريشاً كانت ترحل رحلتين في السنة : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام . وهما رحلتان تجاريتان ، تشتري فيها وتبيع ، وتربح منها ربحاً صبرها في وضع مالي حسن . وقد صارت مكة لذلك العهد مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع . ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزينها في مكة ، أو لتصرفها في أسواق مكة وحدها . فمكة وحدها بلدة صغيرة لا تستوعب أسواقها هذه التجارة ، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب ، لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة وهو القليل ، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب إلى الشمال أعني بلاد الشام ، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشام ، إلى اليمن ومنها إلى بقية العربية الجنوبية والسواحل الأفريقية المقابلة ، فتربح من هذه الصفقات ربحاً حسناً .

وتروي كتب أهل الأخبار أن قريشاً كانوا لا يخرجون عيراً فيرحلون إلا من (دار الندوة)^٢ . فكأنها كانت منطلق التجار والتجارة . ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك لكونها ندوة مكة ودار الرأي والحكم في هذه المدينة ومجلس أهل المال فيها . وكذلك كان يفعل أهل المدن المتاجرة ، تتحرك قوافلهم من ساحة مجالسها ليشاهدوا الناس ، وإذا عادت أناخت في هذه الساحات أيضاً ، ليراها أهل البلد ، فتكون

١ امتاع الاسماع (١/٦٦) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) ، (ذكر قصي بن كلاب) .

لهم فرحة تشبه أفراح العيد .

والرحلتان المذكورتان ، هما من قوافل قريش الكبيرة التي كانت القافلة الواحدة منها تتألف من أكثر من ألف بعير ، والتي يساهم فيها كل من شاء ممن له مال من أهل مكة ، ويريد الاتجار به ، تشترك فيها الأسر المعروفة بالغنى والتجارة من قريش ويساهم معها من له مال في ذلك الوقت ، رجاء الربح والكسب . وقد كانت قافلة (أبو سفيان) التي أهاجت وقعة بدر من قبائل قريش كلها ، وأحصها (بطون كعب بن لؤي) . ليس فيها من (بني عامر) ، إلا ما كان من (بني مالك بن حِسل) ، ولذلك عرفت نفرة قريش الى (بدر) بـ (نفرة بني كعب بن لؤي)^١ .

وكانت قافلة (أبو سفيان) المذكورة ، قد تاجرت ببلاد الشام وهمت بالعودة إلى مكة ، فلما سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشام ، بألف بعير ، محملة بأموال عظيمة ، ندب المسلمين اليه ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس ، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار ، فبلغه خبر استنفار الرسول أصحابه ، فأرسل (ضمضم بن عمرو) الغفاري إلى مكة ، وأمره ان يأتي قريشاً فيستنفرهم الى أموالهم ويخبرهم ان محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج اليها ، فلما بلغها ، وقف على بعيره يبطن الوادي ، وقد جدع بعيره وحول رحله ، وشق قيصه ، ثم صرخ : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى ان تدركوها ، الغوث ، الغوث . فتجهز الناس سراعاً ، وساروا حتى بلغوا (بدرأ) ، وكان (أبو سفيان) ، قد غير طريقه حين سمع خبر خروج رسول الله بأصحابه ، فساحل بقافلته وترك بدرأ يساراً ، وانطلق حتى أسرع فبلغ مكة ، وكانت قريش قد نزلت (الجحفة) ، فكتب اليها : انكم انما خرجتم ل تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجأها الله فارجعوا . وأصر بعض رؤساء قريش على ورود (بدر) ، وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . وفيه ماء ، وعلى الإقامة ثلاثاً ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب

١ الطبري (٤٢٢/٢) .

وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها . ومضوا الى بدر ، ف وقعت معركة بدر^١ .

وما كان لإصرار رؤساء قريش على المسير الى المسلمين لملاقاتهم في الطريق ، اسلوباً من أسلوب التجار في الحفاظ على السمعة وفي الظهور بمظهر القوي المتمكن حتى لا يطمع بهم الطامعون ويتجاسرون عليهم . فكان خروجهم هذا نوعاً من التحدي ومظهراً من مظاهر اظهار القوة ، لتخويف الغير ، لعلمهم بقوتهم ، فكأنهم أرادوا انزال ضربة بمن خرج مع الرسول لملاقاة القافلة ، معتمدين على عددهم وقوتهم ، حتى يتهيب المسلمون في المستقبل من التحرش بقوافلهم، وليكون ذلك درساً لهم . ولعلمهم كانوا لا يريدون في الواقع الاشتباك مع المسلمين في قتال، وإنما كانوا أرادوا مجرد تخويفهم واظهار أنفسهم مظهر القوي العزيز المهاب، كما يظهر ذلك من قول أهل الأخبار من أنهم كانوا أرادوا الاقامة ببدر ثلاثة ايام ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها. ولكن أبت الأقدار إلا ان يقع الاصطدام فوق على نحو ما هو مذكور .

وكانت (بصرى) سوق قريش في رحلتهم الى بلاد الشام ، عندما تقف قوافلهم وتحط رواحلهم ، فيشترون ويبيعون ويمكثون حتى ينتهوا من تجارتهم ثم يعودون الى مكة . وكان منهم من يصل الى (غزة) ويتاجر في أسواقها، حيث تبيع أسواقها منتجات حوض البحر المتوسط وما يرد اليها من (أوروبا) من تجارة . وبيع التجار العرب فيها ما يحملونه من بلاد العرب من سلع مستطرفة مطلوبة في أسواق البحر المتوسط . وبها مات (هاشم بن عبد مناف) جد النبي ، حين كان توجهه للشام بالتجارة ، فأدرسته منيته فمات بغزة وبها قبره ، فقيل غزة هاشم^٢ .

١ ابن هشام (٦١/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٦١/٢) وما بعدها) ، الطبري (٤٢١/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩٨/٣) ، القاموس (١٧٦/٤) ، تفسير ابن كثير (٥٥٣/٤ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠) وما بعدها) .

٢ وقد رثاه « مطرود بن كعب » الخزاعي بقوله :
وهاشم في ضريح عند بلقعة تسفى الرياح عليه وسط غزات
وقيل « بين غزات » ، وورد :

ميت بردمان ، وميت بسلمان ، وميت عند غزات
تاج العروس (٦٥/٤) .

والأدم ، هي في رأس قائمة السلع التي كان يحملها أهل مكة الى بلاد الشام، كانوا يجمعونه من اليمن ومن الطائف ويحملونه الى بلاد الشام والعراق . ومنه ما كان معمولاً مصقولاً معتنى به ، زخرف بالذهب ، لذلك عرف بـ (المذاهب). و (المذاهب) الجلود المذهبة^١ . وهي من أرقى الجلود وأغلاها، يشتريها الأغنياء لاستعمالها في الأشياء الغالية الثمينة .

وتعدّ اليمن من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر في جزيرة العرب ، وقد كانت تحمل الى مكة والى مواضع أخرى لبيعها في أسواقها منها البصرة في الإسلام، حيث كان التجار يحملون جلود البقر من اليمن اليها^٢ . واشتهرت أيضاً بعطورها لجودتها . روي أن (عبدالله بن أبي ربيعة) كان يبعث بعطر اليمن من اليمن الى أمه (أسماء بنت مخزبة) ، أم (أبي جهل) ، فكانت تبعه الى الأعطية، وكانت تضع العطور في قوارير ، وترزنها ، فتبيع نقداً ، أو ديناً . فلإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب^٣ . ولعل شهرة مكة بعطورها ، إنما جاءت بها من العطور المستوردة التي تأتي اليها من اليمن ومن أماكن أخرى .

وكان الزيت على رأس السلع التي كان يشتريها أهل مكة وتجار يثرب من بلاد الشام ، لصفائه ولنقاوته وجودته ، وكان (دحية بن خليفة الكلبي) يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام ، وصادف رجوعه من الشام وقت صلاة الجمعة ، والرسول يخطب ، فلما سمع المصلون خلف الرسول صوت أجراس القافلة جعلوا يتسللون اليها ، خشية ان يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامراًة . فوبخهم الله بالآية : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين »^٤.

١ تاج العروس (٢٥٨/١) ، (ذهب) .

٢ قال الشاعر :

والله للنوم بجرعاء الحفر
أهون من عكس الجلود بالسحر

بلا العرب (ص ٣٠٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٢٠/٨) ، الواقدي ، مغازي (٦٥) .

٤ الجمعة ، الآية ٩ ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤ /

٣٦٦ وما بعدها) ، الواحدي أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣

وما بعدها) .

وقد عرف الزيت المستورد من الشام بالزيت الركابي ، لأنه كان يحمل على الإبل من الشام .

ولم يشر أهل الأخبار إلى رحلة على شاكلة رحلتي الشتاء والصيف إلى العراق . وإنما أشاروا إلى تجار منهم كانوا يتاجرون مع الحيرة . ومعنى هذا ذهاب قوافل صغيرة إلى العراق ، لم تكن بحجم قوافل قريش إلى بلاد الشام أو اليمن . ولم يشر القرآن الكريم أيضاً إلى رحلة جماعية إلى العراق أو إلى موضع آخر . مما يدل على أن قريشاً كانت ترحل رحلتين جماعيتين كبيرتين في السنة إلى بلاد الشام في الصيف ، وإلى اليمن في الشتاء فقط . أما رحلاتهم الأخرى ، فلم تكن كبيرة ضخمة وجماعية ، بل كانت قوافل دون القافلتين في الحجم ، وكانت خاصة أصحابها أغنياء ، لهم رؤوس أموالهم ، يبعثون بقوافلهم على حسابهم ، في كل وقت شاؤوا ، وتكون أرباحها لهم : لا يشاركون فيها مشارك ، وقد يرأسون بأنفسهم قوافلهم ، فيذهبون بها إلى العراق ، ولهم فيه تجار وأصحاب ، فإذا باعوا عادوا ببضاعة جديدة وبما كسبوه إلى مكة .

فقد روى أن (أبا سفيان) كان يذهب بنفسه إلى العراق للتجارة ، يحمل معه حاصلات اليمن والحجاز ، ويعود بحاصلات العراق وبما يحتاج إليه أهل الحجاز واليمن من بضاعة . بل ذكروا أنه كان يفد على (كسرى) ، يحمل إليه الهدايا تقريباً إليه . ذهب إليه مرة ، ومعه خيل وأدم ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم وأعطاه هدايا وأطافاً^١ . وكان من مصلحة كسرى التقرب إلى أهل مكة ، فقد كانوا تجاراً ، وكانوا على طريق مهم وفي مركز خطير من الناحية السياسية والتجارية ، كما كان نفسه يتاجر مع العرب ويتبايع معهم ، لذلك كان من مصلحته بمجاملة أهل مكة والاتصال بهم .

وذكر أنه قد كانت له صلات برؤساء وتجار الحيرة ، ويملوكها أيضاً ، يحمل إليهم الهدايا ، ويأخذ منهم أطافهم ، ثم يعود بما يجده في أسواق الحيرة من تجارات . قدم مرة على عمرو بن هند ، أو النعمان بن المنذر ، فوجد عنده (مسافر بن عمرو بن أمية القرشي) ، وكان قد ترك مكة ونزل الحيرة ، وهو

١ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) ، كتاب البلدان (٤٨٨) .
٢ الاغانى (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٢١) ، « اللجنة » .

في قبة من آدم حمراء ، أمر الملك بضرها له ، لإكراماً له ، وكان الملك اذا فعل ذلك برجل ، عرف قدره ومكانته ، فالتقى بـ (مسافر)^١ .

وكان أبو سفیان - كما يقول أهل الأخبار - تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش الى الشام وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء المعروفة بالعقاب ، وكان لا يجسها إلا رئيس ، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس . وكان صديقاً للعباس وندمه في الجاهلية^٢ .

وكان (مسافر بن أبي عمرو بن أمية) ، وهو من رجال قريش جلالاً وجوداً وشعراً ، ومن فتيانها ، ممن يتاجرون مع العراق ، ويربح من تجارته هذه ربحاً طيباً ، وكان هلاكه بالعراق . فقد كان قد خرج في تجارة الى الحيرة ، فهلك بها عند (النعمان بن المنذر) ، ورثاه (أبو طالب)^٣ .

وكان (عبدالله بن جدعان) من أثرياء مكة ومن تجارها . ذكر أنه تاجر مع الحيرة . ويظهر مما ذكره أهل الأخبار عنه ، أنه كان ثرياً جداً ، وربما عدّ أثرى قريش في أيامه ، واليه تنسب قصة ادخال (الفالوذج) الى أهل مكة ، حيث يذكرون أنه تعلمها من أهل العراق ، وجاء معه طبّاخ خاص ليطبخ له طبخ الحيرة وأهل فارس .

وكان (العاص بن وائل بن هاشم) السهمي من تجار مكة ، الذين رحلوا بتجارهم إلى خارج مكة . وكان من أشرف قريش . وقد مات بالأبواء^٤ . ولعله كان خارجاً في تجارة له فمات هناك . ومن ولده (عمرو بن العاص) . وقد أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة معاً^٥ . وكان تاجراً كذلك . ويذكر (ابن كثير) ان (عمرو بن العاص) وفد على (مسيلمة) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغسة ، فقال :

١ الاغاني (٤٦/٨ وما بعدها) .

٢ الاستيعاب (٨٦/٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ كتاب نسب قريش (١٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٠٣) .

٤ كتاب نسب قريش (٤٠٨) .

٥ كتاب نسب قريش (٤٠٩) .

وما هي ؟ فقال : « والعصر إن الانسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، وانما أنت أذنان وصدر وساترك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو ، والله انك لتعلم أنني أعلم انك تكذب^١ . والرواية موضوعة ، فسورة (العصر) من السور المكية ورقمها (٢٧) حسب ترتيب نزول السور بمكة على رأي العلماء ، أي قبل الهجرة ، وقبل إسلام (عمرو) بزمن ، وقبل مجيء (مسيلمة) إلى المدينة مع وفد حليفة ، وبعد مجيئه إليها بدأت دعوته بمعارضة الرسول . ثم ان جملة : « ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ » ، جملة تشعر ان (عمرو بن العاص) كان مسلماً إذ ذلك ، بينما كان هو من المشركين في ذلك العهد . ثم إن ما نسب الى (مسيلمة) من آيات ، وضع على وزن آيات القرآن ومحاكاة لها ، وليس في : (يا وبر يا وبر الخ) أي شيء يضاهي : (والعصر) في النسق أو في المعنى ، وعندني أن الخبر من الأخبار الموضوعة . وقد يكون (عمرو بن العاص) قد زار اليمامة ، فهذا شيء غير مستبعد . فقد كان تاجراً وكان تجار مكة يسافرون الى اليمامة والى غيرها للتجارة ، أما أنه ذهب خاصة لزيارة (مسيلمة) ومكالمته على نحو ما يرد في الخبر ، فأسلوب يدل على وجود الصنعة فيه أكثر مما يدل على الصحة وصدق الرواية .

وقد عرف أهل الحيرة بنشاطهم في الأسواق وبتجارهم مع أسواق جزيرة العرب وغيرها ، حتى قيل : « إنك لا ترى بلداً في الأرض ليس فيه حيري^٢ » . وقد كانت الحيرة نفسها سوقاً مقصودة ، تشتري وتبيع ، يأتيها التجار من مختلف الأمكنة ، وموضع تجاري على هذه الشاكلة لا بد أن يذهب أهله الى الأسواق الأخرى للبيع والشراء. وقد عرف أهل الحيرة بحذقهم في الصيرفة وفي بيع الفلوس . قيل لأحد أهل الحيرة ممن يتعاطى الطب : « ما لأهل الحيرة والطب . عليك بيع الفلوس في الطريق^٣ » .

- ١ تفسير ابن كثير (٤/٥٤٧) ، البداية والنهاية (٦/٣٢٦) .
- ٢ مختصر كتاب البلدان (ص ٥١) .
- ٣ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (ص ٢٥٠) .

وكان تجار الحيرة يزورون مكة للتجارة بها ، ولهم مع تجارها عقود وجوار وتجارة ، فإذا ذهب أحدهم الى مكة نزل على حليفه وجاره ، ثم باع ما عنده من تجارة ، واشترى ما يجده بمكة من سلع مطلوبة مرغوبة ثم يعود الى الحيرة . وكان منهم من كوّن مع حلفائه من أهل مكة تجارة مشتركة تتعامل بالحيرة وبمكة وبمواضع أخرى ، وتسوي أشغالها بالمراسلة ، يدير الحيريون منهم أعمال الشركة بالحيرة ، ويدير المكيون منهم أعمالها بمكة ، ثم يراجعون في الحساب ، ويقسمون الأرباح والخسائر على وفق ما اتفقوا عليه .

وقد كانت تجارة قريش تجارة واسعة ، وقد أقام تجارهم وكالات ومتاجر في مواضع متعددة ، لتتولى أمر البيع والشراء . ولعلمهم كانوا يمثلون مصالح مكة السياسية في الحبشة كذلك ، كأن يتولى هؤلاء التفاوض مع الحكومة هناك في عقد عهود سياسية واقتصادية وما شابه ذلك . وقد كان اتصال أهل مكة بالحبشة وثيقاً ودائماً ، ويظهر أنهم كسبوا منافع مهمة من أعمالهم واشتغالهم في تلك البلاد .

وقد عهدت قريش الى أناس آخرين من رجالها بقيادة قوافلها ، الى بلاد الشام أو الى اليمن . كما قام رجال منها بتجهيز قوافل لهم لتتاجر بأموالهم . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) استأؤوا من خبر هجرته استياءً كبيراً ، لعلمهم بأهمية موقع (يثرب) ، وبما سيقوم به المسلمون من التعرض بقوافلهم ومن تحرشهم بتجارهم وفي هذا العمل نكبة عظيمة تصيب تجارتهم وأرباحهم ومنافعهم المادية . فتشاوروا في أمرهم وتناقشوا ، وقالوا : « قد عوّر علينا محمد متجرنا وهو طريقنا » وقال (أبو سفيان) و (صفوان بن أمية) : « إن أفئنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا »^٢ ، وقال أيضاً : « كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا »^٣ ، وقال غيره مثل ذلك من كلام ، يشعر بمقدار الأضرار والخسائر التي منيت بها تجارة قريش بسبب هجرة الرسول الى يثرب واعتراضه طرق القوافل . لا سيما بعد أن تبين لها أن جميع السبل التي فكرت في سلوكها لتسيير قوافلها عليها ، هي غير آمنة ولا سالمة ، وأن المسلمين

١ الاغانى (٥٠/٨) .

٢ الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .

٣ الطبري (٦٤٦/٢) .

قد أخذوا يباغتون قوافلهم حتى في الطرق الجنوبية المؤدية الى اليمن والطرق البعيدة الى تؤدي الى العراق .

وقد وقف المسلمون لقريش بالمرصاد ، وأخذوا باعتراض قوافلهم ، فما كادت تمضي سبعة أشهر من مقدم الرسول المدينة ، حتى أمر (حمزة) بالتوجه الى ساحل البحر من ناحية العيص ، للتحرش بعير لقريش كانت قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب ، فكان خبر هذه السرية أول خبر سيء يبلغ مسامع قريش ، وقد نجت القافلة ، إلا أن الخبر جعل قريشاً تشعر أنه سيكون مقدمة لأخبار سيئة ستصيب مصالحها التجارية وحياتها الاقتصادية ، ولن يكون لها من نجاة ، إلا بالتهيؤ للقضاء على الرسول والإسلام . كما فكرت في وضع خطط لتغيير طرقها التي تسلكها في ذهابها الى الشام باتباع طرق بعيدة سالمة ، تكون بعيدة عن المسلمين ، وقد سلكتها فيما بعد ، حين ضيق المسلمون على قوافلها التي كانت تسير على الطرق المألوفة ، فتين أنها لم تكن سالمة أيضاً وأن المسلمين أخذوا يهاجمونها على كل طريق ، مهما كان .

وكان من غيظهم على الرسول ، ومن تأثرهم بما أصاب تجارتهم من خسارة وضرر ، ان لقبوا الرسول بـ (القاطع) . ولما ذهب (الحجاج بن علاط) ، الى مكة ، وكان تاجراً له مال بمكة أودعه زوجته ، ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، قالوا له : أخبرنا بأمر محمد ، فإنه قد بلغنا ان القاطع قد سار الى خيبر ، وهي بلدة يهود وريف الحجاز . فنعتوا الرسول بـ (القاطع) لأنه قطع عليهم تجارتهم وهدد طرقهم التي يسلكونها للوصول الى أسواق الشام وبلاد العراق .

ولما كان الشهر الثامن من مقدم الرسول المدينة ، أرسل سرية الى بطن (رابغ) بلغت (ثنية المرة) ، وهي بناحية الجحفة ، لتقابل عمراً لقريش ، اختلف في أميرها ، فقيل : كان (أبو سفيان) ، وقيل بل (مكرز بن حفص) ، وقيل (عكرمة بن أبي جهل) . فكان بين المسلمين والمشركين رمي ، ونجت القافلة .

١ الطبري (٢/٤٠٢) ، امتاع الاسماع (١/٥١) .

٢ الطبري (٣/١٨) .

وكانت كبيرة على ما يظهر ، إذ كان عدد رجالها ، أي حراسها مائتين^١ . ورجع المسلمون دون ان يغنموا شيئاً ، وقد كانت السرية انذاراً آخر لقريش بالخطر الذي سيحيق بتجارها وبمصالحها المادية وبأن ما كانت تربحه من أرباح لن يدوم لها فيما بعد .

وقد تمكن (أبو بصير) من إنزال ضربات موجعة بتجارة قريش ، اختار (العيص) ، وهو ناحية على ساحل البحر على طريق غير قريش الى الشام موضعاً ينقض منه على قوافل قريش ، فيسلب ما فيها من مال ويقتل من يقتل من المارة ، حتى ضيق عليها ، وهرب اليه من كان بمكة محبوباً من المسلمين ، حتى تجمع عنده قريب من سبعين مسلماً ، أغار بهم مرة على ركب كان يريد الشام ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً . فغاض قريش تضييق (أبو بصير) عليهم ، حتى كتبوا الى رسول الله يسأله بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير اليه ومن معه . فكتب اليه ان يعود ومن معه^٢ .

ولما عقد صلح (الحديبية) وكانت الهدنة بين قريش والرسول ، استراحت (قريش) ، وإن بقيت خائفة من أن لا تجد أمناً لها ، فأرسلت قافلة في نفر من قريش فيها (أبو سفيان) ، الى (غزة) متجرها في بلاد الشام ، فوصلت سالمة الى هناك ، وتاجرت ثم عادت^٣ .

وذكرت كتب التاريخ والأخبار أسماء عدد من رجال مكة كانوا يخرجون الى التجارة بأموالهم وأموال غيرهم من أمثال أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ، وكان يخرج تاجراً الى الشام . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله وأموال رجال من قريش أبضعوها معه^٤ . وقد عرف (بالأمين) ، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، يخرج بماله وبمال غيره تاجراً ، يأتمنون به ، ثم يعود فيؤدي الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه . وكان آخر خروجه تاجراً بأمواله وبأموال قريش قبل الفتح ، خرج الى الشام فلما انصرف قافلًا لقيته سرية لرسول الله ، أميرهم (زيد بن حارثة) ، وكان أبو العاص

١ الطبري (٤٠٢/٢) ، امتاع الاسماع (٥٢/١) .

٢ امتاع الاسماع (٣٠٥/١) .

٣ الطبري (٦٤٦/٢) ، (ذكر خروج رسل رسول الله الى الملوك) .

٤ الطبري (٢٩٢/٢) .

في جماعة عبر ، وكان زيد في نحو سبعين ومائة راكب ، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال وأسروا منهم ناساً ، فاستجار (أبو العاص) بزینب ، فأجارته ، وردّ الرسول الأموال والأسرى اليه ، وعاد مع القافلة الى مكة ، فأدى الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أضع معه ، ثم أعلن أمام قريش شهادة الاسلام ، وتركهم فقدم يثرب مسلماً ، ورد رسول الله ابنته عليه^١ .

ومن تجار قريش (صفوان بن أمية بن خلف) ، ذكر انه كان أحد العشرة الذين اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الاسلام من عشرة بطون . وكان أحد المطعمين في الجاهلية والفصحاء ، وأحد أشراف قريش ، واليه كانت الأيسار ، وهي الأزام ، فكان لا يسبق بأمر حتى يكون هو الذي يجري يسره على يديه . وكان يقال له : (سداد البطحاء) . وهو أحد المؤلفة قلوبهم . وكان غنياً ، وكذلك كان أولاده^٢ . ورد في الحديث : ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية ، وقنطر أبوه ، أي صار لها مال كبير ، كأنه يوزن بالقنطار^٣ ، فيها من أسرة ثرية ثقيلة الثراء .

وتعدّ أيام مغادرة القوافل وأيام عودتها سالمة ، من الأيام المشهودة في مكة ، يخرج فيها أهل البلدة لتوديع القافلة متمنين لها النجاح والفلاح والعودة سالمة بربح وافر كثير ، داعين آهنتهم ان تبارك في رجالها وتمنحهم العون والفلاح في البيع وفي وقايتها من شر السفر ومن أذى الأشرار قطاع الطريق . ويخرج فيها أهل مكة فرحين مستبشرين ، لاستقبال القافلة قادمة من سفرتها البعيدة وهي محملة بسلع جديدة وبثمن ما باعته من سلع وما ربحتة من فروق الأسعار : سعر الشراء وسعر البيع ، حتى اذا ما بلغت القافلة مكة ، كان أول واجبها زيارة رئيسها وأصحابها (البيت الحرام) لرفع الحمد والشكر الى رب البيت على ما أنعمه عليها من الأمن والسلامة وما رزقها من ربح . ثم يعود مع أصحابه الى بيوتهم ليستريحوا وليقوموا بتصفية حسابهم ، واعطاء كل واحد من المساهمين في رأس مال القافلة نصيبه من الربح .

وقد ذكر أن قريشاً كانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . وأن قافلة

-
- ١ الاصابة (٤/١٢١) ، (رقم ٦٩٢) ، الاستيعاب (٤/١٢٥) ، (حاشية على الاصابة)
 - ٢ الاصابة (٢/١٨١) وما بعدها ، الاستيعاب (٢/١٧٩) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .
 - ٣ تاج العروس (٣/٥٠٩) ، (قنطر) .

(أبي سفيان) التي كانت سبب وقعة بدر، كانت ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، فسلم أبو سفيان إلى أهل العير رؤوس أموالهم، وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً^١.

وقد اشتهرت بعض الأسر من قريش بالتجارة مع الأقطار البعيدة عن مكة. وقد ذكر أهل الأخبار أن بني (عبد مناف) المعروفين بـ (أصحاب الإيلاف) كانوا أسرة ثرية غنيّة اختصت بالتجارة مع الخارج. وكانوا أربعة أخوة، هم: هاشم، وكان يؤالف الروم، فأمن في تجارته إلى الشام. أما الأخ الثاني، فعبد شمس، وكانت تجارته مع الحبشة. وأما الثالث فكان المطلب، وكان يرحل إلى اليمن. وأما الرابع، فهو نوفل، وكان يرحل إلى فارس. وقد عرف هؤلاء بـ (المتجرين)^٢ وبـ (المجبرين) وبـ (المجبرين)^٣.

ولم يكن الإيلاف إيلافاً مع الروم أو الفرس أو الحبشة، وإنما كان إيلافاً مع سادات القبائل. فبفضل العقود والعهود التي عقدها (هاشم) وأخوته مع سادات العرب أمكن مرور قوافل مكة بأمن وسلام نحو العراق وبلاد الشام واليمن والحبشة. ولولا هذه العقود التي جبرت قلوب سادات القبائل بتقديم حقوق مرور لهم، أو بإشراكهم في مال القافلة، بحمل تجار مكة ما عندهم من سلع لبيعها على حسابهم، وتقديم ثمنها مع الربح الذي جاؤوا به على سعر البيع المقدر، لما كان في إمكان قريش ضبط أولئك الأعراب ومنعهم من التحرش بقوافلهم ومرورها إلى الأسواق بأمن وسلام.

ويرجع أهل الأخبار مبدأ (الإيلاف) وخروج قريش من مكة بالقوافل إلى بلاد الله الأخرى إلى (هاشم بن عبد مناف)، فهم يذكرون أن قريشاً كانوا تجاراً « وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم،

١ نهاية الارب (١٧/٨١)، (ذكر غزوة أحد) .

٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٥) .

٣ تاج العروس (٦/٤٤)، (الف) .

فذكر ذلك لقيصر فقيل له : ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ، وانما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتمم بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث اليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم ! فكتب له كتاباً أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحجّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً - والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو أمان الطريق - وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم: فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يُجوزهم يوفيههم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزة . وخرج المطلب ابن عبد مناف الى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر اليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى (الفيض) وهلك بردمان من اليمن . وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون. وخرج نوفل ابن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع الى العراق فمات بسلام . واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام «^١ . وهذا القصص . أوجد أهل الأخبار مبدأ الإيلاف ، ومبدأ خروج قريش بالتجارة الى الأقطار المذكورة . ويكون عمل (آل عبد مناف) وفق هذه القصة ، عملين : أخذهم أماناً من الملوك المذكورين بمعاملة قريش معاملة حسنة وحمايتهم لهم في أرضهم من كل تعدّ قد يقع عليهم ، ومراعاتهم مراعاة خاصة حين مجيئهم اليهم للتجارة ، معاملة الأحسن حظوة بين التجار الذين يتاجرون في أسواقهم ، والعمل الثاني ، هو عقدهم الإيلاف مع

١ . ذيل الامالي (١٩٩ وما بعدها) .

سادات القبائل الذين يمرون بهم في ذهابهم وإيابهم الى الشام والعراق واليمن والحبشة ، بأن يأمنوا عندهم في أرضهم ، ولا يعتدى على أحد منهم .

وموضوع ذهاب هاشم واخوته الى الشام أو العراق أو اليمن أو الحبشة ، موضوع طبيعي لا داعي إلى إثارة الشك حوله ، فقد وجدنا أن غيرهم من تجار مكة كانوا يتاجرون مع الأماكن المذكورة ، تاجروا معها قبلهم وتاجروا معها بعدهم ، أما أنهم التقوا بقيصر وبكسرى وبالنجاشي وبتبابعة اليمن ، وتعاقدوا وتعاهدوا معهم ، ففضية أخرى فيها نظر ، وقد عودنا أهل الأخبار على سماع مثل هذا القصص . وكل ما نستطيع أن نتصوره فيما لو صدقنا بالخبر ، هو أن أولئك الأخوة قد قابلوا بعض موظفي الحدود وتصادقوا معهم وقدّموا لهم بعض الهدايا ، فصاروا يتساهلون معهم في جباية الأعشار وفي أخذ حقوق المرور ، فشاع بين قومهم أنهم تعاقدوا مع أولئك الملوك .

والإيلاف ، العهد والدمام وشبه الإجازة بالخفارة ، من ألف بينها تأليفاً ، أوقع الألفة وجمع بينها بعد تفرق ووصلها ، ومن ذلك المؤلفة قلوبهم ، أمر النبي بتألفهم ، أي بمقاربتهم وإعطائهم من الصدقات ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم الحمية مع ضعف نيّتهم على أن يكونوا مع الكفار على المسلمين^١ . وصار أهل مكة ، بفضل الإيلاف ، آمنين امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد . فالإيلاف العهد التي أخذتها قريش من سادات القبائل إذا خرجت في التجارات فتأمن بها^٢ .

وقد عرف أصحاب الإيلاف ، وهم الأخوة الأربعة أبناء عبد مناف بـ (المجبرين) ، إذ كانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً ، يجيرون قريشاً بميرهم ويجبرون فقيرهم ، ولذلك قيل لهم (المجبرين) .

وذكر أن كل واحد من الأخوة المذكورين أخذ حبلًا من ملك . فأما هاشم فإنه أخذ حبلًا من ملك الروم ، وأما عبد شمس ، فإنه أخذ حبلًا من النجاشي . وأما المطلب ، فإنه أخذ حبلًا من أقيال حمير . وأما نوفل ، فإنه أخذ حبلًا من

١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (ألف) .
٢ تاج العروس (٤٤/٦) ، (ألف) .

كسرى ، فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الأمصار بحبال هؤلاء^١ .
 و (الحبل) العهد والذمة والايامن ، يقال كانت بينهم حبال فقطعوها ، أي
 عهود وذمم . وذلك أن العرب كانت تخيف بعضها بعضاً فكان الرجل إذا أراد
 سفراً أخذ عهداً من سيد قبيلة فيأمن بذلك ما دام في حدودها حتى ينتهي الى
 أخرى فيأمن بذلك^٢ . والحبل الحلف أيضاً والعصم^٣ . فالحلف بمعنى العهد بين
 القوم والمعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وقد كانت الأحلاف كما
 سبق أن تحدثت عنها من أهم سمات الجاهلية ، وقد نهى عنها في الاسلام ، لما
 كانت توقعه من أضرار في المجتمع بسبب التكتلات والتحزبات والعصبية التي تؤدي
 الى القتال . فورد : لا حلف في الاسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر
 المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه
 الرسول: وأما حلف كان في الجاهلية لم يزد الاسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة
 على الخير ونصرة الحق . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما
 يخالف حكم الإسلام^٤ .

وكانت للعرب تعابير ومصطلحات في اعطاء العهد والأمان ، ومنها مصطلح :
 (لا بأس) . والبأس العذاب والشدة والخوف ، وإن قال الرجل لعدوه لا بأس
 عليك ، فقد أمنه ، لأنه نفى البأس عنه . وهو في لغة (حمير) (لبات)^٥ .
 وبفضل اتباع سياسة تأليف قلوب القبائل ، باشر اك ساداتها في تجارة قريش ،
 أو اعطاء ساداتها جمالة مرور ، أو هدايا ، أو بالتصاهر معها ، أو باكرام إيلها
 لنقل تجارة قريش ، تمكنت قريش من تأليف قلوب سادات القبائل ، فأمنت على
 نفسها ، وصارت قوافلها تخرج في أي وقت شاءت من أوقات السنة في الشهور

- ١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (الف) .
- ٢ تاج العروس (٢٦٩/١ وما بعدها) ، (حبل) .
- ٣ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١ وما بعدها) ، المحبر (١٦٢) ، الطبري (١٢/٢) ،
 Kister, p. 126.
- ٤ تاج العروس (٧٥/٦) ، (حلف) .
- ٥ قال شاعرهم :
 تنادوا عند غدرهم لبات وقد بردت معاذر ذي رعنين
 تاج العروس (١٠٤/٤) ، (بؤس) ، (٥٨٠/١) ، (لبت) ، اللسان (٢٠/٦) وما
 بعدها) ، (بؤس) .

الحل أو في الشهور الحرم . لا تخشى بأساً ، حتى أنها صارت تعطي أمانها لغيرها ، وبذلك ألقت القبائل الأخرى التي لم تكن لها عقود وإيلاف وحبال مع القبائل المحالفة لقريش ، فصارت تحمل كتاب أمان قريش وشعارها ، وهو ما عضد من شجر الحرم ، يوضع حول العنق ، على ما يزعمه أهل الأخبار ، فيكون جواز سفر وكتاب مرور .

والإيلاف ، أي عقد (الحبال) مع سادات القبائل ، عمل مهم جداً بالنسبة لكل صاحب عمل وتاجر . إذ يتمكن التاجر به من حماية نفسه وماله ومن المرور بأمن وسلام ، دون أن يتعرض لخطر النهب والسلب . وهو حتى إذا تعرض للخطر ، فإن سيد القبيلة بنفوذه وبسيادته على قبيلته كفيل بأن يعيد إليه ما انتهب منه . ولهذا الأهمية ، عقدت قريش الحبال مع سادات القبائل الذين تمر تجارة تجارها بأرضهم . عقدتها قريش ، أو أمضاها تجار من تجارها ، بما لهم من صداقة وصلات زواج وروابط بسادات القبائل ، ولا سيما بسادات قبائل المناطق التي تمر الطرق التجارية بأرضها ، فلهذه القبائل بالذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى كل تاجر ، وللحكومات بصورة خاصة بالطبع ، ولهذا تنافست على الاستحواذ عليها حكومات اليمن وحكومة الحيرة ، والساسانيون . وقد رأينا (امرأ القيس) المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد يصل بجيشه إلى (نجران) مدينة (شمر) ، ورأينا في خبر سجل بالمسند وصول جيوش اليمن إلى أرض الخليج . فلهذه الأرضين ، كاليامة ونجد والبحرين أهمية كبيرة بالنسبة للتجارة في جزيرة العرب لمرور الطرق البرية التي تربط العربية الجنوبية بالعربية الشمالية وبالعراق وسواحل الخليج بها ، ولمرور الطرق التي تربط العربية الغربية بالعربية الشرقية وبالعراق بأرضها . وقد رأينا كيف تعرضت قافلة (كسرى) التي قدمت من اليمن ، قاصدة المدائن إلى السلب والنهب ، وكيف تعرضت (لطيمة) النعمان إلى النهب في هذه الطرق .

ويذكر أهل الأخبار ، أن تجار اليمن والحجاز ، كانوا يتحفزون بقريش ، إذا كانوا بأرض مضر . وأن قريشاً استفادوا من عقدهم الإيلاف مع تميم وأسد ، و (بني عمرو بن مرثد) من (بني قيس بن ثعلبة) ، ومع قبائل (ربيعة) عامة . و (مضر) و (ربيعة) ، هي من قبائل نزار ، و (قريش) نفسها من ولد (مضر بن نزار) في عرف النسابين ، فإذا أخذنا بذلك علماء ، استطعنا القول إن هذا النسب ، إنما هو مصالح تجارية وروابط سياسية مصلحية ، جمعت

هذه القبائل في (بوتقة) مصالح مشتركة ، فأوجدت منها هذا النسب الذي أفاد أهل مكة كما أفاد القبائل الأخرى المشتركة فيه ، والتي كانت تتاجر في أسواق مشتركة فتبيع وتشتري وتنتفع بفضل هذا النسب السياسي .

وللنسب أهمية كبيرة في تأليف القبائل وفي المحافظة على الأمن في البوادي . والتصاهر هو من أهم الروابط التي كانت تربط بين القبائل وبين الأفراد . ومن هذه الأهمية ظهر التصاهر السياسي والتصاهر الاقتصادي ، عند الملوك وعند سادات القبائل والأشراف ، فصاهر رجال من قريش قوماً من (تميم) ومن (بني عامر ابن صعصعة) ومن يثرب واليمن ، وصاهر ملوك الحيرة سادات القبائل المعروفة ، للاستفادة من المصاهرة لمآرب سياسية واقتصادية ، بالحصول على تأييد قبائل أولئك السادة : ولمرور تجارتهم من أرضهم بأمن وسلام . وقد كانوا يعرفون كيف يختارون من يصاهرونه بالطبع ، يختارونه لكثرة عدد أبناء قبيلته ولنزلتها ولملكاتها بين القبائل ، ليتخذوا منه قوة في تأديب القبائل الأخرى . وهو عمل لم يكن سادات القبائل في جهل من أسبابه ، وفي غفلة عن ادراك كنهه ، لذا كانوا يتاجرون به ، كما تاجر به الملوك ، أو سادات القبائل ، فيشترطون فيه شروطاً فيها مكاسب ومنافع لهم . كأن يطعمهم الملوك (الطعم) ويعطونهم الآكال ، ويجعلون لهم جباية الطرق ، وبعض الامتيازات على القبائل الأخرى ، ويجعلونهم على مقربة منهم في مجالسهم ، ويقرّبونهم بذلك على غيرهم من السادات .

وقد كان لهذا التقديم الحضري أهمية كبيرة في نفوس القبائل ، فهو عندهم أمانة من أمارات التشريف والتقدير . والأعرابي وإن ازدري الحضرة والحضارة ، يقر مع ذلك في نفسه بتفوق الحضري عليه : ان لم يكن بالسلاح وبالقتال ، فبالحيل والغش والخداع كما يرى الأعرابي ذلك ، أي باستعمال الحضري ذكائه الميبي على التجارب والتقدم في مستوى الحياة في التغلب على الأعراب البسطاء الذين وإن كانوا أذكاء بالبلدية ، لكن ذكاءهم لا يكافئ ذكاء الحضرة في التخلص من المتاعب والورط المعقدة التي تحتاج الى خداع .

وقد افتخر سادات القبائل الذين كان مستواهم العقلي فوق مستوى قبائلهم بكثير - بفضل اتصالحهم بالحضر ، وزياراتهم (الأرياف) وبيوت الملوك ، بسبل البلاد الأعجمية المتقدمة أيضاً - بهذا التقديم ، واعتبروه شرفاً وتعظيماً ، فأكثروا من زيارة الملوك ، وانتهزوا المناسبات للاتصال بهم ، وافتخروا بما كانوا ينالونه منهم

من عطايا وصلات وخلع ، وهو تكريم كان يؤدي أحياناً الى نتائج محزنة ، بسبب مبالغة بعض الملوك في تكريم سيد قبيلة ، وتقديمه على غيره من السادات ، مما كان يثير حقد بقية السادات ، الذين قد تهيج عواطفهم عندئذ لهذا التقديم ، وقد يعتبرونه إهانة خاصة قصد توجيهها اليهم ، فينتقمون ممن قدم عليهم ، أو ينتقمون من الملك ، بالإغارة على أرضه وأمواله . ونجد تأريخ الحيرة مليئاً بحوادث سببها إسراف بعض الملوك في الانصياع لعاطفتهم بتقديم سيد قبيلة ، وتأخير آخر بإجلالته في مكان هو دون المكان الذي كان من اللازم اجلاله فيه من مجلس الملك. ولقرب المكان وبعده من الملك ومن صدر المجلس أهمية كبيرة عند سادات القبائل وفي عرف المجتمع آنذاك ، حتى صار ذلك سنة لهم ، اتبعوها في مجالسهم أيضاً ، فإذا دخل الناس مجلس سيد القبيلة جلسوا حسب منازلهم وأقدارهم في مجتمعهم ، على الرغم من مظاهر (الديمقراطية) والمساواة التي تظهر عليهم ، والتي تبدو عندهم في مخاطبة بعضهم بعضاً .

السلع :

والأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والبرد اليانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى ، هي من أهم السلع الرئيسية التي تتكون منها تجارة قريش . وبعض هذه السلع مهم وغال ومطلوب . فكان تجار مكة يشترونه من معادنه ومواضعه ، ويبيعونه في الأماكن التي تبحث عنها ، وتربح من ذلك ربحاً كبيراً . وقد كانت (الأدم) على رأس الأموال التي تاجرت بها ، حتى ان قريشاً كانت قد جعلتها على رأس الهدايا والألطف التي كانت تهديها الى الملوك والرؤساء وأكابر الناس. فلما ذهب (أبو سفيان) الى العراق ، ووصل الى (كسرى) كما يزعم أهل الأخبار ، أهدى اليه أدماً وخيلاً ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم . ولما أرسلت (قريش) (عبدالله بن أبي ربيعة) و (عمرو ابن العاص بن وائل) الى النجاشي ومعها هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، جمعت له أدمساً كثيراً ، ولم تترك من

١ الاغاني (٤٦/١٢) ، العقد الفريد (٢١/٢) ، (لجنة) .

بطارقه بطريقاً إلا وله هدية ، فكانت الأدم على رأس أطفاف مكة
وهداياها^١ .

ومن العطور التي كانت معروفة بمكة : (الدرور) ، عطر يجاء به من الهند
كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع
من أخلاط ، وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لإحرامه بذريرة^٢ .

وأغلى سلع قريش التي كانت تحملها لبيعها في أسواق بلاد الشام ، هي (الفضة) .
ولما أرسل الرسول (زيد بن حارثة) على غير لقريش كان فيها (أبو سفيان) ،
وكانت قد غيرت طريقها الذي يسلك الى الشام ، وسلكت طريق العراق ، كانت
مع (أبي سفيان) فضة كثيرة ، وهي أعظم تجارتهم ، فالتقى بها (زيد بن
حارثة) فأصاب العير ، وبلغ خمس الرسول من الغنمة عشرون ألفاً ، ومعنى
هذا ان قيمة الغنائم ، كانت مائة ألف^٣ . وقد ذكر في خبر هذه السرية ان الفضة
كانت آتية كثيرة ، وسكت خبر آخر عن نوع الفضة ، وأما ذكر ان (أباسفيان)
كان يحمل معه فضة كثيرة^٤ .

والأسلحة من أهم مواد التجارة التي كان يتاجر بها التجار . فالسلاح أداة
ضرورية جداً بالنسبة الى الأعرابي ، فبه يدافع عن نفسه ، وهو لا ينأى إلا
وسلحه الى جانبه ، حتى إذا ما شعر بأقل حركة ، نهض وهو بيده ليدافع به
عن نفسه . والتاجر نفسه مع انه انسان مسالم لا يميل بطبيعة عمله الى حمل السلاح
والتقاتل كان مضطراً مع ذلك الى حمله معه والى استخدام العبيد والأعوان للدفاع
عن نفسه وعن أمواله . ولهذا كان يحرص على شرائه من أي مكان يجده فيه
ليدافع به عن نفسه ، كما كان يتساجر به لأن الاتجار به من أرباح الأعمال في
السوق ، لإقبال الناس عليه ، فكان يشتريه من صناعه ومن أسواقه ، لبيعه لمن
يطلبه بسعر أعلى ، فيربح بذلك كثيراً من الفرق بين السعرين .

وكان لأهل مكة خاصة حس مرهف نحو التجارة . كانوا إذا سمعوا أجراس

- ١ . الروض الانف (٢١١/١) وما بعدها .
- ٢ . تاج العروس (٢٢٣/٣) ، (ذر) .
- ٣ . الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .
- ٤ . الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .

عير ، هرعوا نحوها يلتمسون خبرها . فلما أقبلت من الشام عير لدحية بن خليفة الكلابي ، أو لعبد الرحمن بن عوف ، تحمل زيتاً أو طعاماً ، وكان رسول الله يخطب يوم الجمعة ، والناس خلفه صفوفاً ، فلما سمعوا بها ، جعلوا يتسللون ويقومون إليها ، خشية أن يسبقوا إليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . وكانوا إذا أقبلت العير ، استقبلوها بالطبل والمزامير والكبر والتصفيق . فلما نظر رسول الله الى المصلين وقد انفضوا من حوله ، عنفهم ووبخهم ، ونزل في حقهم ما نزل في الآية من ترك البيع حالة صلاة الجمعة^١ .

ويتبين من كتب الحديث ان الصحابة كانوا يتعاطون التجارة ، ويتكسبون في الأسواق ، وقد كانوا نشطين جداً في ذلك ، وكان أهل مكة أكثر نشاطاً من أهل المدينة في هذا الباب ، فلا يكاد بعضهم يصل المدينة مهاجراً من مكة حتى يسأل عن السوق ، ويبحث عن رزق ، فذهب بعضهم الى سوق بني قينقاع ، وهي من أسواق يهود ، فنجحوا فيها وحصلوا على ربح ومال أعالوا به أنفسهم . وقد كان في جملة ما أجاب به أبو هريرة ، وقد قيل فيه : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وان المهاجرين والأنصار لا يحدثون عنه بمثل حديث أبي هريرة : « إن اخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ملء بطني ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة أعي حين ينسون^٢ » . فالأنصار كانوا أصحاب زرع وأموال ، والمهاجرون كانوا أصحاب تجارات .

وكانوا اذا التهوا في السوق وانصرفوا في التجارة ونسوا أمورهم الأخرى ، قالوا ألهانا الصفق بالأسواق ، يعني الخروج الى تجارة وبيع وشراء . وقد أدى

١ سورة الجمعة ، الآية ٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) . تفسير النيسابوري (٦٨/٢٨ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٣٦٦/٤ وما بعدها) ، الواحدي ، أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٢/٤ وما بعدها) ، اثار السنن (٨٨/٢) ، تيسير الوصول (١٨٢/١) .

٢ صحيح البخاري (٥٢/٣ وما بعدها) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القاري (١٦١/١١ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٥/٤ وما بعدها) .

انصراف بعض الصحابة الى السوق وتعلقهم بالتجارة الى انفضاضهم أحياناً عن الرسول وهم حوله ، فورد في الحديث : « بينا نحن نصلي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلا اثنا عشر رجلاً ، فنزلت : وإذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها وتركوك قائماً »^١ .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أغنياء قريش ، ومن المقرضين للمال بفضل يأخذه من المدين يضعه على رأس ماله . وقد بقي على ماله وراثته في الاسلام كذلك . وكان الرسول قد أبطل ربا العباس في أول ما أبطل من ربا في الاسلام . وكان العباس يتاجر كذلك ، له محل يتاجر فيه ، ويستقبل التجار الغرباء . وقد ذكر أن (عفيف الكندي) كان في جملة من تاجر معه في الجاهلية ، وقد جاء اليه ليبتاع منه بعض التجارة^٢ .

ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، آخى بين (عبد الرحمن بن عوف) ، وهو من المهاجرين ، وبين (سعد بن الربيع) ، وهو من أكثر الأنصار مالاً ، فقال (سعد بن الربيع) : « أقاسمك مالي نصفين وأزوجك » . قال (عبد الرحمن) : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلّوني على السوق . فدلوه على سوق قينقاع ، فغدا اليه ، ثم تابع الغدو ، فما لبث أن جمع مالاً من تعامله بالسوق وصار من المثريين^٣ .

وقد كان (عبد الرحمن) تاجراً بمكة قبل هجرته الى يثرب ، وصاحب مال . فلعل الرسول أراد من مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، أن يساعد المهاجرون الأنصار وأن يتعاونوا معاً ، كما كان شأن عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، وهما من أصحاب الخبرة والتجربة في العمل ، فيفيدوا بذلك الإسلام بما يحصلون عليه من مال .

وقد ذكر أهل الأخبار ، أن عبد الرحمن ، تصدق على عهد رسول الله ، بشطر ماله ، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار ، ثم حمل خمسمائة فرس في سبيل

١ البخاري (٣/٥٥) ، ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها ، ٥٥) .
٢ الاصابة (٢/٤٨٠) ، (رقم ٥٥٨٨) .
٣ ارشاد الساري (٤/٤ وما بعدها) .

الله وخسمائة راحلة ، وكان أكثر ماله من التجارة . وذكروا أنه أعتق ثلاثين ألف نسمة وأنه أوصى لكل من شهد بدمياً بأربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل . وذكروا أنه كان تاجراً مجدوداً في التجارة ، وكسب مالاً كثيراً ، وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً فكان يدخل منه قوت أهله سنة . وذكروا أنه صالح امرأته التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً ، وقيل عن ربع الثمن من ميراثه . ورووا أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . وأنه كان يقول : « قد خشيت أن يهلكني كثرة مالي . أنا أكثر قریش كلهم مالاً »^٢ .

وكان (أبو بكر) تاجراً معروفاً بالتجارة بمكة قبل الاسلام. ولقد بعث النبي وعنده أربعون ألف درهم ، ولما أسلم كان يعتق منها ويعول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف^٣ .

وكان (طلحة بن عبيد الله بن عثمان) القرشي التيمي ، من تجار مكة ، ولما قدم المدينة مهاجراً ، أخذ يتاجر مع (الشام) ، وذكر انه اشترى مالاً ب (بيسان) ، وان غلته تبلغ ألفاً وافيأ كل يوم . والوافي في وزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم الفرس التي تعرف بالبغلية . وقد ساهم في حرب الجمل ، التي وقعت سنة ست وثلاثين^٤ .

والزبير من رعييل التجار كذلك ، وكان تاجراً مجدوداً في التجارة ، كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج^٥ ، وله أرضون واسعة وأموال طائلة .

تجار يثرب :

ولم يشتهر أهل (يثرب) في كتب أهل الأخبار بالتجارة ، وانما اشتهروا فيها بالزراعة ، ولا سيما بزراعة النخيل . ولكننا نجد ان من بينهم من كان يتاجر مع

- ١ الاصابة (٤٠٨/٢) ، (رقم ٥١٨١) .
- ٢ الاستيعاب (٣٨٥/٢) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .
- ٣ الاصابة (٣٣٣/٢) ، (رقم ٤٨١٧) .
- ٤ الاستيعاب (٢١٠/٢) وما بعدها ، (حاشية على الاصابة) .
- ٥ الاستيعاب (٥٦٣/١) ، (حاشية على الاصابة) .

بلاد الشام واليمن ، وله أموال شغلها في التجارة ، كما ان من بينهم من كان يعطي فضل ماله بالربا للمحتاج الى المال ، وكان منهم من حصل على مال كثير فابتنى له (الأطم) و (الحصون) ليحصن نفسه وماله بها . ولما هاجر المهاجرون اليها ، تعاطم شأن التجارة بها ، إذ أخذ المهاجرون والأنصار يتاجرون مع الشام ، فيبيعون ويشتررون ويستوردون التجارة الى المدينة ، بقوافل تأتي محملة بالزيوت وبتجارة الشام اليها . حتى أمر الرسول باتخاذ سوق بها ، يتاجر فيه التاجر دون ان يدفع خراجاً ، بقوله : هذا سوقكم لا خراج عليكم فيه . فرفع عن تجار يثرب ما كان يدفعه تجار الأسواق الأخرى من خراج الأعشار .

ويظهر من دراسة وتشريح كتب التفسير والحديث والسير والأخبار : أنه قد كان بين أهل (يثرب) وأهل مكة فروق في أصول التعامل التجاري ، فوزن أهل يثرب يختلف عن وزن أهل مكة ، وكيلهم يختلف عن كيلهم أيضاً ، وتعاملهم في السوق يختلف بعض الاختلاف عن تعامل أهل مكة . ثم هم فوق ذلك يختلفون عن أهل مكة في أنهم أصحاب زرع ، وأهل مكة أصحاب تجارة ، ولما جاء الرسول الى المدينة ، وجد لهم معاملات تخص أكثرها الزراعة لم تكن معروفة بمكة ، فسألهم عنها ، وحدد لهم موقف الإسلام منها .

وسبب هذا الاختلاف ، هو اختلاف طبيعة المكانين . فمكة بلد غير ذي زرع فقلَّ عندهم التعامل الزراعي ، لعدم احتياجهم اليه . أما (يثرب) ، فبلد زراعة عيشة أهله على الزراعة واستغلال الأرض ، وبالإشتراك والتعاون في استغلال الملك الفاضل على الزراعة وبإستغلال الأرض ، وبالإشتراك والتعاون في استغلال الملك الفاضل على حاجات صاحبه ، فظهرت عندهم أعراف زراعية ، لم تعرف بمكة . وكانت عندهم بعض حرف ، لم تشتهر بمكة . ومن هنا راعى التشريع الإسلامي في التجارة أعراف أهل مكة فيها ، وراعى في التشريع الزراعي وفي الحرف . أعراف أهل يثرب في الاثنين .

واقتصاد يثرب اقتصاد زراعي ، الانتاج فيه انتاج زراعي ، ثم حيواني ، عماد الانتاج فيه التمور والخضر ، أما اقتصاد مكة ، فهو اقتصاد تجاري عماده التجارة القائمة على أساس شراء السلع من الأسواق ونقلها الى مكة ، وتصريفها من هناك

على أهل مكة ومن حولهم ، ونقل الفائض الى الأسواق الموسمية وأسواق العراق وبلاد الشام والعربية الجنوبية . فهو اقتصاد لا يعتمد على الانتاج المحلي ولا على حرف محلية ، إنما يقوم على أساس شراء المنتجات الأجنبية من مصادرها بأسعار أعلى ، للحصول على الأرباح عن طريق الفرق بين السعيرين : سعر الشراء وسعر البيع ، أو عن ثمن التوسط في معاملات البيع والشراء .

ويظهر ان أهل يثرب لم يكونوا قد أقبلوا على الزراعة اقبالاً كافياً ، وان الأرض لم تكن قد استغلّت استغلالاً جيداً، لهذا نجد الرسول بعد هجرته الى هذه المدينة يحث المسلمين على الاقبال على الزراعة وعلى العمل بها ، وعلى استغلال الأرض ، لأن فيها قوت المسلمين ، فأراد بذلك سد النقص الذي كان يجابه أهل المدينة وغيرها في الحبوب وفي أقواتهم الأخرى ، وهذا مما أدى الى احياء بعض أرضها في أيامه ، أحيائها أهل يثرب وأحيائها بعض المهاجرين .

وكان بعض تجار مكة يمرون بيثرب في طريقهم من مكة الى بلاد الشام ، وفي عودتهم منها الى مكة . ولما خرج (هاشم) في عبر لقريش فيها تجارات ، كان طريقه على المدينة ، ثم نزل بسوق النبط ، وهي سوق تقوم بها في السنة نحو ثمانون لها ، يبيعون ويشترون^١ . وهي سوق يظهر أنها كانت تقام في موسم معين من السنة ، فيتجمع فيها التجار للبيع والشراء . ولما خرج (عبدالله) والد الرسول الى الشام الى غزة في عبر من عبرات قریش يحامون تجارات ، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا ، مرّوا بالمدينة ، وبها توفي فدفن هناك ، في دار النابغة ، وهو رجل من بني عدي بن النجار^٢ .

وقد كان الأنباط يتاجرون مع المدينة ، يأتون اليها ب (الدرملك) ، وهو الدقيق الحواري ، وهو دقيق أبيض، وبالزيت . وكانوا يأتون اليهم بأخبار الروم^٣ . ولعلهم كانوا يتاجرون في موضع معين من أسواق يثرب، فعرف لذلك بسوق النبط . وقد نافست (يثرب) مكة في التجارة بعد هجرة الرسول اليها ، إذ أخذ المهاجرون يتاجرون منها مع بلاد الشام والعراق ، وصارت القوافل ترد اليها محملة

١ ابن سعد ، طبقات (٧٨/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٩٩/١) .

٣ امتاع الاسماع (٤٤٥/١) وما بعدها .

بيضايع بلاد الشام ، وأخذ الأنصار والمهاجرون يتاجرون معاً في الأسواق ، وقد تضخمت هذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الإسلام ووصول الصدقات الى بيت المال في المدينة ، فتحسن حال أهل المدينة وصار لهم رأس مال مكنهم من تشغيله في التجارة وفي الزراعة ، فاستغلوا أرض يثرب بزروعها زروعاً مختلفة ، ثم استغلوا أموالهم هذه في الخارج بعد الفتوح .

وقد نشأت يثرب وتوسعت لوجود المساء بها ، وهذا المساء هو الذي صيرها مستوطنة زراعية ، كما صير غيرها من المستوطنات العديدة التي تقع في شمالها وتمتد حتى تتصل في فلسطين مستوطنات زراعية منتجة ذات بساين ومزارع يعتمد في زرعها على العيون والآبار . وكان عماد حاصلها التمر . وقد أحاطت بيثرب هالة من (الحوائط) المغروسة بالنخيل ، غرسها سادات يثرب ، فصارت من أهم موارد رزقهم ، وقد زرعوا بعض الخضر والبقول تحت النخيل ، لسد حاجتهم وبيع الفائض منه في الأسواق . ولكبار الملاكين فيها (أطم) يعيشون فيها ويخزنون بها ميراثهم وحاصلهم ، ويحتمون بها عند الخطر . وأما سواد الناس ، فلهم بيوتهم ، وبعضها بيوت ذات طابقين . ولم تكن المدينة مسورة ولا محاطة بخندق على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ، بل كانت مدينة مكشوفة ، إذا دامها خطر ، قام أهلها بسد منافذ طرقها ، وبالدفاع عنها من السطوح ، وبمقاومته في الأزقة .

وأرض يثرب أرض خصبة كان من الممكن زرعها لو أقبل أهلها على الزراعة ، ولكنهم لم يقبلوا عليها اقبالاً تاماً ، بل قام المتمكنون منهم بغرس الأرضين الغنية بالماء ، والأرضين التي كان الماء فيها قريباً من سطح الأرض بحفر الآبار بها ، وتركوا الأرضين الأخرى مواتاً لم تزرع . وشغلوا الموالي والرقيق في الزراعة ، ولو أجهدوا أنفسهم في استصلاح التربة وفي استنباط الماء ، وحبس مياه السيول ، لأحيوا بذلك أرضين واسعة . بدليل ان بعض المهاجرين ممن كانت عندهم رغبة في الزراعة وأموالاً ، عملوا في استصلاح أرضين مواتاً حتى أحيوها ، وصارت تأتي اليهم بغلات وافرة .

ومن أثرياء يثرب (أحيحة بن الجلاح) ، وهو من سادة الأوس^١ . وهو

١ تاج العروس (٢/١١٩) ، (أح) .

من أصحاب الأرض ، وكان شريفاً في قومه ، مات قبل الاسلام . وكانت تحته (سلمى بنت عمرو الخزرجية) ، وتزوج (سلمى) بعده (هاشم بن عبد مناف) فولدت له (عبد المطلب) جد النبي^١ .

وسعد بن عبادة بن دليم ، سيد الخزرج ، هو من أغنياء يثرب ومن أصحاب الأطم فيها . وكان سيداً كريماً مضيافاً ، جفنته تدور مع النبي في بيوت أزواجه وكان يأخذ كل ليلة جماعة من أهل الصفة يعيشهم ، وكان أهل الحاجة يذهبون الى أطمه ينالون الشحم واللحم^٢ .

والطائف مصيف أهل مكة ومتمونها من الفواكه والزبيب والعسل والخضر . وقد اشترى أغنياء قريش بها الأملاك والبساتين وشاركوا أهل الطائف في التجارة . وهي بلاد (ثقيف) . وثقيف من المتحضرين للشطين الأذكباء . وللطائف قرى ، أولها (لقيم) ، وآخرها (الوهط) . وكان اسمها القديم (وج) . ويذكر أهل الأخبار ، أن (الطائف) ، كانت في الأصل قرية بالشأم ، أو قطعة من الجنة التي كانت لأصحاب الصريم ، أو باليمن بنواحي صنعاء ، فنقلت بدعوة (ابراهيم) الى الحجاز ، لتكون مصيفاً وجنة لأهل مكة . وكانت بغير سور ، فلما جاء (الصدف بن الدمون) من حضرموت الى (وج) ، وكان قد أصاب دماً في قومه ، لحق بثقيف وأقام بها ، وأقام لهم طوقاً أطاف بوج ، فسميت بالطائف منذ ذلك الوقت . ومنهم من يزعم ، أنها إنما سميت بذلك لأن (جبريل) لما نقلها من موضعها ، طاف بها بالبيت سبعاً ، ثم وضعها بموضعها ، فعرفت بالطائف^٣ .

وكان أهل الطائف مزارعين ، عاشوا على الزراعة ، واتخذوها تجارة لهم . زراعة الكروم والفواكه والخجوب . وكسبوا من ذلك مالا ، وكان منهم من اشتغل بدبغ الجلود ، وبيع (الأدم) أي الجلود المدبوغة أو تصديرها الى الخارج ، ومنهم من تاجر ، وساهم مع تجار مكة في تجارتهم . فتجمع من كل ذلك رأس مال شغله أصحابه في الربا ، فكانوا يقرضون المال لمن يحتاج اليه من أهل الطائف ومن غيرهم ، لوجود ما فائض عندهم .

- ١ الاصابة (٣٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٥٥) ، المحبر (٤٥٦) .
- ٢ الاصابة (٢٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣١٧٣) .
- ٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

ووجد التجار في كل مكان وجدت فيه أسواق و سلع و تجارة من بلاد العرب في الجاهلية وفي الاسلام ، لم تكن تخلو منهم مدينة من المدن أو قرية كبيرة . فسوق الفلج كان سوقاً لبني نزار واليمن^١ . وب (العوسجة) وهي معدن ، تجاراً^٢ ، من الجائر ان يكونوا قد تجمعوا في هذا المكان للتجار بالمعدن الذي يستخرج منه ، فكانوا يتعاطون الاتجار بالمعادن .

١ الصفة (١٦٠) .
٢ بلاد العرب (٣٦٨) .

الفصل الثاني بعد المئة

القوافل

وتنقل التجارة البرية بطرق القوافل ، وذلك لضمان حماية الأموال والتجارة والأرواح . و (القافلة) ، الرفقة القفال والمبتدأة في السفر^١ . وذكر علماء اللغة أن (القافلة) العير كذلك . وذكر بعض منهم أن (العير) الإبل التي تحمّل الميرة ، أو كل ما امتير عليه إبلًا كانت أو حميرًا أو بغلاً^٢ . وقد أطلق أهل السير والتأريخ ومن تحدث عن وقعة بدر : لفظة (العير) على قافلة قریش التي كان يرأسها (أبو سفيان) ، كما أطلق بعضهم (ركبان قریش) على من كان مع (أبي سفيان) من تجار قریش ، معهم أموالهم وتجارتهم من بلاد الشام^٣ . ونجد كتب السير والتواريخ تطلق لفظة العير على قوافل قریش بغير حصر ، مها كان حملها . فلما تحدثوا عن سرية (حمزة) إلى العيص استعملوا لفظة (عير) لقریش ، واستعملوا هذه اللفظة في مناسبات أخرى ، مما يدل على أنهم أرادوا بها قافلة ، أي جماعة من جماعات السفر ، مها كان حملها .

والركبان والركب : ركاب الإبل . وقال بعض علماء اللغة : الركب : ركبان

- ١ تاج العروس (٨/٨٣) ، (قفل) .
- ٢ تاج العروس (٣/٤٣٣) ، (عير) ، تفسير الطبري (١٣/١١ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٩/٢٣٠ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٢٤) ، (عير) .
- ٣ الطبري (٢/٤٢١) ، (ذكر وقعة بدر الكبرى) .

الإبل في السفر دون الدواب ، وهم العشرة فصاعداً ، وذكر ان من الجائز استعمال (الركب) للخيل وللجيش^١ .

و (القيروان) الجماعة من الخيل. والقفل ، جمع قافلة . وهو معرب (كاروان). وقد تكلمت به العرب . قال امرؤ القيس :

وغارة ذات قيروان كأن أسرابها الرعال^٢

وورد في الحديث أنهم كانوا يترصدون عيرات قريش ، أي لإبلهم ودوابهم التي كانوا يتاجرون عليها^٣ .

ويقال للير التي تحمل الطيب : (اللطيمة) . وذكر ان اللطيمة الير التي تحمل الطيب وبز التجارة^٤ . فاللطيمة ، قافلة تحمل تجارة نفيسة الى الأسواق. وقد كان ملوك الحيرة يرسلون لطائمهم الى الأسواق ، لتتاجر بالطيب ، ومنهم (النعمان بن المنذر) ، وكان يبعث الى (سوق عكاظ) في وقتها بلطيمة يجيئها له سيد مضر ، فتبتاع وتشترى له بئمنها الأدم والحريير والوكاء والمغراء والبرود من العصب والوشي والمسير والعدني^٥ .

ويقال لقافلة الإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام ، (ركابا) حين تخرج ، وبعد ما تحيي . وتسمى عيراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل ، والتي يكترون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عيراً ، وإن كان عليها طعام ، اذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس الير التي تأتي أهلها بالطعام ، ولكنها ركاب . يقال : هذه ركاب بني فلان . ويقال زيت ركابي ، لأنه يحمل من الشام على ظهور الإبل^٦ . وذكر ان العسجدية : ركاب الملوك التي تحمل الدق من المتاع^٧ . فهي ير

- ١ تاج العروس (٢٧٦/١) ، (ركب) .
- ٢ تاج العروس (٣٠٩/٩) ، (قرن) .
- ٣ اللسان (٦٢٤/٤) ، (ير) .
- ٤ تاج العروس (٦٠/٩) ، (لطم) ، اللسان (٥٤٣/١٢) ، (لطم) .
- ٥ الاغانى (٧٥/١٩) ، شرح ديوان لبيد (٤٨) ، الامثال للميداني (٣٤/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٥٩/١) وما بعدها .
- ٦ تاج العروس (٢٧٧/١) ، (ركب) ، ارشاد الساري (٧٤/٤) .
- ٧ تاج العروس (٦٠/١) ، (لطم) .

اذن تحمل متاعاً ثميناً، كالذهب والجوهر . وذكر ان العسجدية الإبل تحمل الذهب، وهي ركاب الملوك التي تحمل الدق الكثير الثمن ، والسوق يكون فيها العسجد ، وهو الذهب ، وركاب الملوك ، وهي إبل ، كانت تزين للنعمان بن المنذر^١ .

و (السابلة) (الواطئة) ، وهم المارة . سموا بذلك لوطنهم الطريق^٢ . وهم الذين يسلكون الطرق . والسابلة من الطرق المسبولة ، المسلوكة ، وابن السبيل ، هو ابن الطريق ، والذي قطع عليه الطريق ، والمنقطع^٣ .

ويسمى كل طريق يكثر الاختلاف عليه محجة ، ويسمى الطريق المدروس (الأيتار المليكى) ، ويسمى الطريق الضيق الحبل شركاً ، وحبال الطريق ايتاره . وطريق جادة ، أي مجدودة بالوطة ، وقارعة الطريق ، في معنى مقروعة ، والريع الطريق^٤ .

وكلما كانت الأموال ثمينة وكثيرة ، كانت القافلة كبيرة . يحرسها عدد كبير من الحراس لحمايتها من لصوص الطرق وقطاع السبل الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب . ونقل التجارة بالقوافل طريقة عالمية قديمة، أشير إليها في الكتابات، وفي الكتب المقدسة .

ولم يكن من السهل على التجار في ذلك الزمن التوسع في تجارتهم والمجازفة بالمتاجرة مع أماكن أخرى بعيدة . فالتاجر محتاج الى حماية حياته وأمواله ، ولم تكن الحماية ممكنة إلا في ظل حكومة مدنية قوية ، تحمي أبناءها وكل من يفسد على أرضها وعلى الأرض الخاضعة لها من اعتداء المعتدين .

هذا صار لزاماً على التجار الالتجاء الى نظام القوافل ، ولا سيما القوافل القوية الكبيرة معتمدة على حماية نفسها بنفسها أولاً ، ثم على حماية الحكومة ثانياً . وقد عمدت في الدرجة الأولى الى استرضاء سادات القبائل ، وذلك لتأمين حمايتهم في المناطق التي تمر بها القافلة ولبذل العون والمساعدة لها بتقديم حسق مرور للرؤساء وهدايا وعطايا مناسبة وعقد عقود ومواثيق ، وإلا تعرضت أموال القافلة للأخطار.

- ١ تاج العروس (٢/٤٢٢) ، (العسجد) .
- ٢ تاج العروس (١/١٣٥) ، (وطاء) .
- ٣ تاج العروس (٧/٣٩٦) ، (سبيل) .
- ٤ الصفة (١٨٣) .

ولطول الطرق وبُعد المسافات ، كان على القوافل استرضاء كبار سادات القبائل للحصول على حمايتهم. ومعنى هذا دفع اتارات لهم ، وتحميل المشتريين تلك الاتارات. وهذا مما زاد في الأسعار وجعل الأثمان عالية ، وقد أضر ذلك بالتجارة العربية ولا شك ، كما أضر بالمتجدين الذين كانوا يبيعون انتاجهم اليسير وأكثره مواد خام يتعيشون عليها بأسعار بخسة لسد رمقتهم في هذه الحياة .

وقد عمد تجار مكة - كما ذكرت ذلك في مواضع من هذا الكتاب - الى أساليب مختلفة في استرضاء سادة القبائل الذين تمر بأرضهم قوافلهم، منها استرضاءهم بالمال ، وإشراكهم معهم في رأس المال ، بتقديم ما عندهم من سلع يتوسطون لهم يبيعها في الأسواق ، أو بشراء ما يريدون شراؤه من تلك الأسواق وتقديمه لهم ، ومنها التصاهر معهم ، ودعوتهم لزيارة مكة وتقديم الهدايا لهم ، ثم ضبط كل ذلك بعقود (الإبلاف) ، التي وضعت قواعد وأصول وحقوق مرور قوافل مكة وقوافل تجارها الخاصة في كل الأيام والمواسم بأمن وسلام ، في مقابل تعهدات وعقود عينت بعقود الإبلاف .

وكان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا في بلاد مضر . « لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضري . كان ذلك بينهم . فكانت كلب لا تهيجهم لحلفهم بني تميم، وطيء أيضاً لا تهيجهم لحلفهم بني أسد . وكانت مضر تقول : قضت عنا قریش مذمة ما أورثنا اسماعيل من الدين . فإذا أخذوا طريق العراق ، تخفروا ببني عمرو بن مرثد ، من بني قيس بن ثعلبة ، فتجيز ذلك لهم ربيعة كلها »^١. وهكذا تمكنت قریش من تأمين مصالحها التجارية بعقد الأحلاف مع سادات القبائل، وصار تجارها ينتقلون في مختلف أنحاء جزيرة العرب بحرية وأمان .

والجمال هي واسطة النقل في جزيرة العرب ، هي قطار القوم وسياراتهم في ذلك العهد. وليس في استطاعة حيوان آخر القيام بمثل تلك المشاق من قطع المسافات البعيدة في أماكن لا ماء فيها إلا في مواضع متباعدة وفي أماكن يتغلب عليها الجذب والشظف . كان على ذلك الحيوان ان يتحمل ثقل ما يوضع على ظهره، وان يسير به مسافات طويلة ، ثم عليه ان يتحمل العطش والجوع . ولولا الخواص الجسمية

المحبر (ص ٢٦٤) .

التي امتاز بها عما عداه من الحيوانات ، لما كان في امكانه احتمال هذه المشقات ولعجز عنها حتماً . وقد أشير في التوراة الى قوافل الإبل الضخمة التي كانت تأتي من جزيرة العرب الى بلاد الشام ، وهي حملة بالبضائع الثمينة النفيسة لتبيعها هناك^١ .

ولا تحتاج الإبل الى شرب الماء كل يوم ، لذلك غدت الحيوان المثالي للملائم لحياة الأعرابي والبادية . والجمل صبور على الجوع وفي استطاعته مكافحة جوعه بأكل العوسج والنباتات التي تنبت في البادية . وللعرب أسماء في اظاء الإبل . ومنها (الخمس) أن ترد الإبل الماء يوماً فتشربه ، ثم ترعى ثلاثة أيام ، ثم ترد الماء اليوم الخامس ، فيحسبون اليوم الأول والآخريومين اللذين شربت فيها . وقيل أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع^٢ . ومن الأظاء (الغب) ، وذلك أن ترد الإبل يوماً وتصدر ، فتكون في المرعى يوماً ، وترد اليوم الثالث . وما بين شربتيها ظمأ طال أو قصر^٣ . وعرف (الغب) أنه ورد يوم وظمى آخر . وقيل : هو ليوم وليلتين ، وقيل هو أن ترعى يوماً وترد من الغد^٤ . ومن أمثال العرب المتعلقة بهذا الموضوع : يضرب أخماساً لأسداس ، أي يسعى في المكر والخديعة . وأصله من اظاء الإبل ، فقد كان الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عود إبله أن تشرب خمساً سدساً ، حتى إذا دفعت في السير صبرت ، ثم ضرب مثلاً للذي يراوغ صاحبه ويريه أنه يطعمه ، وقيل يضرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره ، أو الذي يقدم الأمر يريد به غيره ، فيأتيه من أوله ، فيعمل رويداً رويداً^٥ .

وإذ كانت هذه القوافل في حياة القوم على جانب من الخطورة ، كما كانت المصدر المهم من مصادر الثروة ، وضعها أصحابها في حماية آلتهم ، واتخذ بعضهم إلهاً خاصاً واجبه حماية القافلة وايصالها سالمة الى المحل المقصود . وقد عرف الإله (شيع هـ - قوم) (شيع القوم) ، بأنه إله القوافل ، الساهر على حمايتها

١ الملوك ، الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢ ، اشعيا ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ ، Hastings, p. 946.

٢ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .
٣ تاج العروس (١/٩٣) ، (ظمى) .
٤ تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٥ تاج العروس (٤/١٤٠) ، (خمس) .

وحماية أصحابها التجار . وعرف الإلآه (أبو إيلاف) (ايلف) (ايلاف) ، بأنه إله القوافل والتجار وأرباب القوافل كذلك . وكان أصحاب القوافل يقدمون الى آلهتهم الذنور والقرايين بعد انتهاء رحلة القافلة ، برآ بندرهم لها ، وتقرباً اليها ، كي تستمر في بذل حمايتها لهذه القوافل ورعايتها لها ، كما كانوا يأتون الى المعابد والمعجات فيطوفون بها ، ويقصدون أصنامهم فينحرون عندها شكراً وتقرباً اليها لما أنعمت عليهم من نعم الحماية والربح الوافر الذي كسبوه في رحلاتهم هذه . وفي الذي يذكره أهل الأخبار عن طواف رؤساء قوافل مكة بالكعبة قبل بدئهم الرحلة وبعد انتهائهم منها ، الكفاية للدلالة على أهمية هذه الرحلات التجارية في نفوس القوم .

والغالب ان تعهد حراسة القوافل منذ يوم مغادرتها مكانها الى حراس أشداء أقوياء يحملون سلاحهم معهم ، لمقاومة المعتدين . أما رئاسة القافلة، فلا تعطى إلا للمعروفين بشجاعتهم وبقوتهم وبيأسهم وبالخيل وبمعرفةهم للطرق ، ولأهل البيوتات والجاه العريض والسمعة بين القبائل . فرئيس القافلة وكبيرها ، هو دماغها المفكر وقلبها النابض ، وعلى حركاته وأعماله يتوقف مصير القافلة ومصير الأموال الثمينة التي توضع تحت يديه ، فإذا أظهر الرئيس جبناً أو عدم مقدرة في قيادة القافلة وفي الدفاع عنها ، حين تعرضها للخطر ، فقد تقع فريسة سهلة بأيدي لصوص الطرق ، وتنتهب أموالها ، فتكون هذه النتيجة طامة كبرى للمساهمين في أموال القافلة .

ولأهمية قادة القوافل المذكورة ، عملت لهم تماثيل لتخليد ذكراهم ، وكرّموا في الكتابات . وقد عثر على عدد من هذه التماثيل والكتابات في مدينة (تدمر) . وحمل الكثير منهم ألقاب الشرف التي كانت لا تمنح إلا لمن يؤدي خدمات ممتازة للمدينة في ذلك العهد ، ووصل بعضهم الى درجة عضو في مجلس المدينة الحاكم . وقد نال بقية قادة القوافل مثل هذا الاحترام من أصحابهم . ولقب قائد القافلة في الكتابات الجاهلية بـ (زعيم القافلة) وبـ (زعيم السوق)^١ .

حتى رؤساء الحكومات مثل كسرى وملوك الحيرة ، كانوا لا يسلمون زمام قوافلهم إلا للأشداء المعروفين من الرجال . كانوا يتاجرون في الأسواق يشتررون

١ . Cooke, North — Semitic, pp. 274-279.

ويبيعون ، فإذا أقبل الموسم أرسلوا قافلتهم الى السوق برئاسة رجل مشهور معروف بالشجاعة لا يهاب الموت ليوصلها الى السوق المقصود أو المكان المراد وصول البضاعة اليه ، ذلك لأن مجال حكمهم أو نفوذهم ، لا يصل الى الأنحاء البعيدة ، فاضطروا الى استئجار الشجعان المعروفين بقيادتهم للقوافل ، لحماية تجارتهم وأموالهم من اعتداءات المعتدين .

وتعتمد القوافل على الأدلاء الخبراء بطرق البوادي لإيصالها الى أهدافها بأمن وسلام وبأقصر الطرق، ولتجنبها أخطار الأعداء وشر قطاع الطرق ، عند شعورها بوجود خطر عليها إذا ما سلكت الطريق العام ، أو طريقها السذي قررت السير به نحو المكان الذي تريده . فلما أبلغ جواسيس (أبو سفيان) أن النبي قد خرج يترصده نحو (بدر) ، أسرع فاستعان بالأدلاء فانحاز عن بدر ، وساحل ، وتخلص بعلم أدلائه وعلمه بالطرق من وقوعه ووقوع قافلته بأيدي المسلمين . والى الدليل والأدلاء أشير في قول الشاعر :

شدوا المطيَّ على دليل دائب من أهل كاظمة بسيف الأجر^١

وقد استعان قادة الجيش وأمراء السرايا والغارات بالأدلاء أيضاً ، لإرشادهم الى المواضع التي كانوا يقصدونها، وكان الرسول يستعين بالأدلاء ، ويسأل الخبراء أصحاب العلم بطرق البادية حين يغزو ، أو حين يرسل سراياه على قوم . وفي غزوة (بدر معونة) كان (المطلب السلمي) دليلها على الطريق^٢ .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (قريش بن بدر بن يخلد بن النضر) ، كان دليل (بني كنانة) في تجارتهم ، فكان يقال : (قدمت غير قريش) ، فسميت قريش بذلك . وأبوه (بدر) صاحب (بدر) الموضع الذي لقي فيه رسول الله قريشاً^٣ . فقريش بن بدر ، اذن هو على هذه الرواية ، هو أول دليل يصل إلينا خبره من أدلاء قوافل قريش، وهو مؤسس تجارتها .

ولا بد للقوافل من منازل تنزل بها لتستريح ولتريح دوابها من التعب ولتتمون

- ١ تاج العروس (٣٢٥/٧) ، (دليل) .
- ٢ الاصابة (٤٠٥/٣) ، (رقم ٨٠٣٢) .
- ٣ كتاب نسب قريش (١٢) .

بالماء وبالزاد إن احتاجت إليه . ونظراً الى بطء الحيوان في سيره وعدم تمكنه من السير مسافات طويلة دون توقف وراحة ، كانت (منازل) ذلك الوقت غير متباعدة . ويقال للمكان الذي تنزل به القوافل : (المنزل) . والمنزل : المنهل والدار^١ ، وهو في معنى (الحان) ، و (الحان) لفظة معربة معناها المنزل والحانوت^٢ . وقد اشتهرت اللفظة في الاسلام ، وأطلقت على منازل المسافرين في الطرق وفي القرى والمدن ، وتعني المنزل المخصص لتزول المسافر ، وهو منزل يكون كبيراً في الغالب ، يستريح فيه المسافر ، تاجر كان ، أو غير تاجر ، ويضع فيه مطايه .

وأما (الفندق) ، فبمعنى المنزل الذي ينزل به التجار والمسافرون ، وهي من الألفاظ المعربة عن اليونانية من أصل Pandhokiyon^٣ . وقد استعملها عرب بلاد الشام . ويظهر انها من الألفاظ التي شاع استعمالها في الاسلام . وقد ذكر بعض علماء العربية ، ان الفندق بلغة أهل الشام الحان والسبيل من هذه الحانات التي ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن ، وهو فارسي^٤ .

ولم تكن منازل أهل الجاهلية منازل مبنية بالضرورة: فقد كان المسافرون يضربون لهم خياماً يأوون إليها ، أو يلجأون الى ظل مثل شجرة ، يحتضون به من أشعة الشمس ، وقد يفتشون الأرض وينامون جنب لبلهم ، وكل ما يلزم في المنزل أن يوجد به ماء . فالماء هو اكسير الحياة بالنسبة للمسافر ، وهو أهم لهم من الطعام ، فطعامهم في ذلك الوقت طعام قليل بسيط ، تمرات مع لبن ، أو سويق، وما شاكل ذلك ، ثم هم لا يأكلون كثيراً ولا يقيمون لوجبات الطعام وزناً ، وقد يكفي أحدهم بأكلة واحدة من هذه الأكلات الجافة التي يحملها ، وقد يقتاتون بما يجدونه من نابت في طريقهم من ثمر شجر بري أو بقل أو أعشاب ، ولهذا ، صارت المنازل على مواضع الماء .

ولم تكن الأبعاد بين هذه المنازل متساوية ، بل كانت مختلفة ، تتوقف أبعادها على الماء . فإذا وجد الماء في مواضع متقاربة ، قامت عليها مستوطنات متقاربة ،

- ١ تاج العروس (١/١٣٤) ، (نزل) .
- ٢ تاج العروس (٩/١٩٤) ، (خان) .
- ٣ غرائب اللغة (٣٦٣) .
- ٤ تاج العروس (٧/٥١) ، (الفندق) .

وصارت المسافات فيما بينها غير بعيدة ، وإذا كان الماء بعيداً ، صارت المنازل متباعدة ، وقد لا يهم الماء القوافل إذا كانت مزودة به ، وكل ما تلاحظه في سفرها هو تعب الانسان ومقدار تحمل دابته مشقة السفر والبعد ، ولهذا كانوا يقطعون طرقهم بمراحل ، و (المرحلة) المنزل بين المنزلين ، يقال بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان^١ . فهم يقطعون طرقهم على قدر طاقتهم ومقدار تحمل لإبلهم على السير . وقد علمتهم تجاربهم مقدار ما يقطعون ، فإذا شعروا بالتعب وبتعب دوابهم ، نزلوا منزلاً ، قد يكون مأهولاً به ماء ، وقد يكون خالياً في عراء ، للاستراحة به ، فإذا ارتاحوا استمروا في سيرهم نحو جهتهم المقصودة .

و (الفرسخ) في تفسير علماء العربية الراحة ، و (فرسخ) الطريق هو ثلاثة أميال هاشمية ، أو ستة ، أو اثنا عشر ألف ذراع ، أو عشرة آلاف ذراع ، سمي بذلك لأن صاحبه اذا مشى قعد واستراح من ذلك ، كأنه سكن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن الفارسية . وقيل : الفرسخ الساعة من النهار^٢ .

و (الميل) مقياس تقاس به الأبعاد ، يقال قطع كذا ميلاً . وهو منار بيني للمسافر في أنشاز الأرض ، ومنه الأميال التي في طريق مكة ، وهي الأعلام المبينة لهداية المسافرين^٣ .

ونظراً الى وجود إمارات وعشائر وقبائل عديدة تمر بأرضها القوافل ، فقد كان على أصحاب القوافل وأرباب المال إرضاء هؤلاء المتنفذين بإعطاء إتاوات مرور لهم ، وهدايا لحمايتهم وللسماح لهم بالمرور ، على نحو ما تفعله حكومات هذا اليوم من استيفاء حق المرور (ترانزيت) (ترانست) عن التجارة والسيارات . فإذا تحرش بهم متحرش ، وحاول قطاع الطرق الاعتداء عليهم ، كان من واجب سيد القبيلة والرئيس المتنفذ في تلك الأرض تعقب المعتدين وتأديبهم وإعادة ما استولوا عليه الى أصحابه . وبهذه الطريقة أمنت القوافل على أموالها، وأخذت تقطع البوادي والطرق البعيدة الطويلة ، وهي في حمى هؤلاء المتنفذين .

- ١ تاج العروس (٣٤١/٧ وما بعدها) ، (رحل) .
- ٢ تاج العروس (٢٧٢/٢) ، (الفرسخ) .
- ٣ تاج العروس (١٢٣/٨) ، (ميل) .

وقد كان الملوك وسادات القبائل والمتنفذون الذين تمر قوافل التجارة بمناطق نفوذهم ، أو السذنين تقع الأسواق في أرضهم أو في مناطق نفوذهم ، يشتمون في الإتاوة ، ويشتمون في جباية المكس ، ويبالغون في رفع حق المرور والحقوق الأخرى المكتسبة بالعرف والعادة أو بقانون القوة والكيف ، فيؤذون بذلك التجار والتجارة ويضطرون التجار الى رفع أسعار البيع ، للحصول على أرباح لهم ، فتضررت التجارة بذلك ضرراً كبيراً ، وقلَّ الاقبال على شراء السلع المستوردة من جزيرة العرب إلا ما كان ضرورياً ، ولا مناص من شرائها ، وارتفع على المشتري سعر المواد المستوردة ، واضطر التجار الى التحكم في أسعار الشراء من الأسواق المحلية في جزيرة العرب ، بشرائها بأسعار متهاودة لضمان تصريفها في الأسواق الخارجية وفي كل هذه الأحوال ضرر عام للبائع والمشتري وللمستهلك وللإقتصاد العربي بوجه عام .

وقد كانت القوافل تقصد الأماكن التي تريد البيع والشراء فيها في مواسم معينة في الغالب ، وذلك لاجتماع التجار فيها ، وهذا مما يهيئ للتاجر أكبر عدد ممكن من التجار ، كما كان التجار يقصدون الأسواق المؤقتة التي تقام في الأعياد وفي المناسبات الدينية لبيع ما عندهم من بضاعة ولشراء ما يأتي به الناس من أموال ، ولم يكن ذلك خاصاً بجزيرة العرب ، فقد كان العبرانيون وغيرهم من بقية الشعوب السامية يفعلونه أيضاً . ونرى ان الأسواق التي كانت تقام في جزيرة العرب ، كانت تقام في مواسم معينة تقع في الأشهر الحرم ، وذلك لضمان مرور التجار بأمان ، فلا يتحرج بهم إلا مستهتر طريد، والغالب ان سادات القبائل التي تحرش المستهترون بالقافلة التي مرّت بأرضهم ينتقمون بأنفسهم منهم .

وقد كان الجاهليون يضعون أعلاماً على الطريق ليهتدي بها، يقال لها (الصوى) و (الثوة) . ويقول علماء اللغة إن الصوى : الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطرق . والثوة كالصوة ، وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدي بها ، وإن العوة كالصوة التي هي العلم . وفي الحديث : « ان للاسلام صوى ومناراً كمنار الطريق »^١ وذكر أن (الصوة) ، حجر يكون علامة في الطريق^٢ .

١ المخصص (٨١/١٠) ، اللسان (١٤/١٢٧) ، « صادر » .
٢ تاج العروس (٢١٥/١٠) ، (الصوة) .

وذكر أن (الثوة) حجارة ترفع فتكون علماً بالليل للراعي إذا رجع ، وأخفض علم يكون بقدر قعدتك ، وارتفاع وغلظ وربما نصبت فوقها الحجارة ليهتدى بها^١.
 والمنار : العلم يجعل للطريق أو الحدّ للأرضين والعلامة التي توضع على الحدود لتوضح معالمها^٢. وقد كان أهل العربية الجنوبية يضعون علامات على الطرق تشير الى معالمها ، فلا يضل عنها من يسلكها من الرجال والقوافل . وقيل في الإسلام للأعلام المبنية في طريق مكة أميال لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل الى الميل ، وكل ثلاثة أميال منها فرسخ^٣. والمنار محجة الطريق ، قال الشاعر :

لعلك في مناسمها منار الى عدنان واضحة السبيل^٤

والعلامة ، شيء منصوب في الطريق يهتدى به . ويقال لما يبني في جواد^٥ الطريق من المنازل يستدل بها على الأرض أعلام . والأعلام الحدود . والمعلم ، ما يستدل به على الطريق من الأثر^٦. فقد كان من الصعب حتى على خبراء البادية الاهتداء الى الطرق بدون وضع علامات تشير اليها .

والنعامة المفازة ، وقيل علم من أعلام المفاوز يهتدى به^٦. و (المنقل) ، الثنية في الجبل وكل طريق في الجبل ثقيل ، في لغة أهل اليمن^٧.

والآجام علامات وأبنية يهتدى بها في الصحاري . و (الوجم) ، حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رؤوس القور والآكام ، وهي أغلظ وأطول في السماء من الأروم . وحجارتها عظام ، لا يحركها الانسان ولو اجتمع جمع منهم بصعوبة ، ينسبها الناس الى صنعة عاد^٨. و (الآرام) الأعلام تنصب في المفاوز

- ١ تاج العروس (٦٤/١٠) ، (ثوى) .
- ٢ اللسان (٢٤٠/٥ وما بعدها) .
- ٣ اللسان (٦٣٩/١١) .
- ٤ تاج العروس (٥٨٨/٣) ، (نور) .
- ٥ تاج العروس (٤٠٦/٨) ، (علم) .
- ٦ تاج العروس (٧٩/٩) ، (نعم) .
- ٧ تاج العروس (١٤٥/٨) ، (نقل) .
- ٨ قال رؤبة :

وهامة كالصمد بين الاصماد أو وجم العادي بين الاجماد
 تاج العروس (٨٩/٩) ، (وجم) .

يهتدى بها ، أو خاص بعاد ، أي بأعلامهم ، و (الأروم) الأعلام في المفاوز . وكان من عادة الجاهلية ، أنهم إذا وجدوا شيئاً في طريقهم لا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتى إذا عادوا أخذوه . وقيل قبور عاد^١ .

وقد كان الجاهليون قد مهدوا الطرق وكسوا بعضها بمادة قوية مثل (الاسمنت) ووضعوا عليها العلامات . وقد أطلق العرب لفظة (العود) على الطريق القديم العادي^٢ .

وسن الطريق سناً إذا ساره ، ويقال ترك سنن الطريق ، أي جهته^٣ . وقد كان القادة يتنكبون عن سنن الطريق ، ليباغتوا العدو ، أو ليتجنبوا تعقبهم لهم . وقد كان لرؤساء القوافل علم بالأبعاد والمسافات وبالأماكن التي يجب النزول بها والتمون منها بالماء والطعام . ونجد في كتب أهل الأخبار أخباراً بأسماء منازل القوافل وبأبعادها وقد استقيت من أفواه رجال القوافل في الجاهلية . كما نجد ان للأعراب دراية مدهشة بمواضع الماء وبالطرق مع مرورها في بوادي يصعب السير فيها ، وقد ورثوا علمهم هذا عن أسلافهم ومن تجاربهم الخاصة التي تعلموها من كثرة أسفارهم وتنقلاتهم .

وقد كان التجار وأصحاب القوافل يقطعون أسفارهم بمراحل ، ينزلون في كل مرحلة بمنزل يستريحون فيه ويموتون أنفسهم بما يحتاجون اليه من ماء وزاد . ويعبرون عن المسافات التي تقطعها القافلة بين منزل ومنزل آخر بـ (مسيرة) ، فيقولون (مسيرة يوم) أو (مسيرة نهار) وما شابه ذلك . كما عرفوا الأبعاد بالفرسخ والميل^٤ . و (النزل) المنزل ، وما هيء للضيف ان ينزل عليه . ومنه منازل الطريق^٥ .

وتراعى القوافل في سيرها الى أهدافها الأخذ بأقصر الطرق الآمنة المطمئنة التي تتوفر فيها المياه ، وقد تعدل من سيرها فتسلك طرقاً بعيدة أو وعرة إذا أحست بعدو يترصد لها في الطريق المسلوك ، أو بلبصوص ظهوروا فيها ، أو بقوم يريدون الاستيلاء على قافلتهم ، كالذي فعله (أبو سفيان) مقله من الشام يريد مكة ،

- ١ تاج العروس (١٨٤/٨) ، (ارم) .
- ٢ تاج العروس (٤٣٧/٢) ، (عود) .
- ٣ تاج العروس (٢٤٢/٩ وما بعدها) ، (سن) .
- ٤ اللسان (٦٣٩/١١) ، « صادر » .
- ٥ تاج العروس (١٢٣/٨) ، (نزل) .

حيث بدل طريقه ، فحوّله عن (بدر) ، وساحل ، فأضاع بذلك الفرصة على المسلمين ووصل سالماً بقافلته الى مكة .

قوافل الميرة :

وقد يجتمع نفر للذهاب الى سوق للاختيار منه ، وقد يذهب أصحاب البيوت الى الأسواق ليمير أهلهم بما يحتاجون اليه من طعام ولباس ، وكان (الأعشى) المازني الشاعر في جملة من يمتار من سوق (هجر) . وقد خرج مرة يمتار في شهر (رجب) ، من (هجر) فهربت امرأته بعده ناشزة عليه ، فعادت برجل منهم يقال له (مطرف بن نهصل) ، فلما قدم الأعشى أخبر أنها نشزت ، وأنها عادت بـ (مطرف) فأتاه ، فقال له : يا ابن عم عندك امرأتي معاذة فادفعها اليّ فامتنع مطرف ، وكان أعزّ منه ، فخرج حتى أتى النبي فعاذ به وأنشده شعراً ، فكتب الرسول الى (مطرف) أن يدفع زوجة الأعشى اليه ، فدفعها اليه .

وقد استغل بعض الناس هذه الطرق للتعيش منها ، فعمل على حفر آبار بها ، وعلى تهيئة ما يمكن تهيئته من وسائل الراحة للمسافرين، لينزلوا بها وليخففوا بذلك عنهم عناء السفر . وليتزودوا بالماء الطيب العذب . فنشأت عشرات المنازل ، التي أراحت المسافرين وأصحاب القوافل، وجعلتهم في مأمن من الجوع والعطش وإمكانية التيه في البوادي والقفار . كما حفظت لهم حياتهم وأموالهم بضمان أصحاب تلك المنازل للمسافرين حياتهم وأموالهم من تحرش أحد بهم ما داموا في جوارهم وفي حماهم ، وضمان قبائلهم لهم حق الحماية والجوار ، والقيام معهم بمعاينة من يتناول على المسافرين وينتهك حرمة الجوار .

وقد صارت الطرق مورداً من موارد العيش لمن لا عيش له ولا رزق من الصعاليك والذؤبان . فتجمعوا ، وكونوا عصابات أخذت تبرص بالقوافل ، حتى اذا جاءت قافلة انقضت عليها وسلبتها ، ثم فرت بما غنمته الى مواضع نائية قصبية

١ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٥) ، الاستيعاب (٢/٢٥٦) ، (حاشية على الاصابة) .

بعيدة عن أي حكم ، لتعيش على ما غنمته . وقد عرف هؤلاء ب (لصوص
الطرق) . وكان المطرود من قبيلته ومن غضب أهله عليه فنفوه عنهم وتبرأوا
منه ، والعبيد الأبقون ، يتجمعون في المواضع الحصينة ، وفي المراقي الصعبة التي
تشرف على الطرق ، ويهاجمون منها المارة والسابلة والقوافل . ولما ظهر الاسلام ،
كان قوم من هؤلاء جماعهم من كنانة ، ومزينة ، والحكم ، والقارة ، ومن اتبعهم
من العبيد ، قد اعتصموا في (جبل تهامة) ، وأذوا الناس ، فكتب لهم رسول
الله ، انهم إن آمنوا وأسلموا ، فعبدهم حر ، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد
اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه ، أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان
لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان^١ .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) .

الفصل الثالث بعد المئة

طرق الجاهليين

لا أملك نصاً جاهلياً فيه أخبار عن الطرق التي كان يسلكها الجاهليون في تنقلاتهم من مكان الى مكان ، لأغراض خاصة ، أو للرعي أو للتجارة ، وما سأذكره عن الطرق مأخوذ من الموارد الإسلامية فقط . وهي موارد تعرضت لموضوع (المسالك) والطرق التي كان يسلكها الحجاج والمسافرون والتجار في أيام الخلافة ، داخل أرض الخلافة وخارجها . وعلى رأس هذه الموارد كتب (المسالك والممالك) ، وبقية كتب (الجغرافيا) والسياحات ووصف جزيرة العرب ففي هذه الموارد وصف للمسالك والطرق ولسلك البريد التي كانت في بلاد العرب وهي وإن كانت طرقاً إسلامية ، إلا أنها بنيت على الطرق الجاهلية القديمة في الأغلب، وما فعله المسلمون ، هو أنهم اختصروا بعضاً منها ، أو أقاموا مستوطنات جديدة عليها ، أو حفروا آباراً بين منازلها التي كانت متباعدة ، بدليل أن المنازل والمواضع الجاهلية التي ترد أسماءها في الشعر الجاهلي ترد كذلك في وصف الإسلاميين لطرق جزيرة العرب على النحو الوارد في ذلك الشعر ، أو في أخبار أيام العرب أو في كتب السير والتواريخ .

ولهذا فسيكون اعتمادي في وصف طرق القوافل عند أهل الجاهلية ، على هذه الموارد الإسلامية ، مع العلم بأن بعض المسالك الجاهلية ، قد ماتت وذهب أثرها ، وان بعضاً منها بقي على حاله ، وان بعضاً من الطرق المسلوكة في الوقت الحاضر ، والتي مهدت وعمرت وعميراً حديثاً بالوسائل الفنية المعروفة في هذا اليوم، هي طرق

جاهلية قديمة ، كانت مسلوكة قبل الاسلام . وهي طرق طبيعية كانت مسلوكة لوجود الماء فيها في مواضع متقاربة ، وقد أقيمت عندها مستوطنات ، وبقيت على حالها ، لم تذهب فائدتها ، ولم تتغير مواضع الاستيطان فيها ، لذلك صارت السبل التي تسلك بين أجزاء جزيرة العرب الى هذا اليوم .

ومما يؤسف له كثيراً ، هو ان الموارد الاسلامية التي تحدثت عن غزوات الرسول وسراياه وعن الوفود التي قصدته من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، والرسائل التي أرسلها الرسول الى سادات القبائل أو لجمع الصدقات ، ثم عن حروب الردة وعن عمال الخلفاء على أقاليم جزيرة العرب، سكنت عن ذكر الطرق التي سلكت والمنازل التي نزلت ، ولم تفصل في ذكر المنازل والمراحل، فأضاعت علينا بذلك معرفة الطرق الجاهلية التي كان يسلكها الجاهليون في تجارتهم وفي أسفارهم ، ثم ان الذين بحثوا في الاسلام عن المسالك والطرق ، وذكروا المنازل مع أبعادها بالأميال أو بالفراسخ ، أو بالمراحل ، لم يهتموا بالإشارة الى ذكر تواريخ هذه الطرق أو المنازل والى أصلها ، هل هي جاهلية أم هي اسلامية ، أم معدلة ، ولمثل هذه الملاحظات التي أهملوها أهمية كبيرة بالنسبة للبحث بالطبع.

وسأبدأ بالطرق التي سلكها أهل الجاهلية فيما بين العراق وبلاد الشام . وقد كان منهم من يحاذي الفرات ، حتى لا يبتعد عن الماء والغذاء وأهل الحضرة ، ثم يسلك الطرق الشمالية التي مهدها الروم ، لدخول بلاد الشام ، وهي في أيدي الروم في الغالب ، غير ان الفرس استولوا عليها في بعض الأحيان ، ونظراً الى ما لهذه الطرق من الأهمية من الناحية الاقتصادية والعسكرية ، فقد تشدد الروم في مراقبة القوافل التي تقصد بلاد الشام ، أو تخرج منها للذهاب الى العراق، وتصبغوا في السماح لها وللتجار بالمرور .

ومن التجار من كان يخرج من الحيرة الى بلاد الشام، فيسلك طريق (القطقطانة)، وهو موضع سبق أن تحدثت عنه في أثناء كلامي على نهاية الملك (النعمان بن المنذر) ، إذ جاء في رواية أن (كسرى) أمر به فسجن به . وهو موضع غير بعيد عن الكوفة من جهة البرية بالطف . ثم يسلك الطريق الى (البقعة) ،

١ البلدان (١٢٥/٧) ، الاغانى (٢٨/٢) ، تساج العروس (٢٠٩/٥) ، (فقط) ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٦٨/٣) .

ثم الى (الأبيض) ، ثم الى (الحوشي) ، ثم الى (الجمع) ، ثم الى (الخطي) ،
ثم الى (الجبة) ، ثم الى (القلوني) ، ثم الى (الأعناك) ، ثم الى (أذرعان) ،
ثم الى (دمشق) ^١ .

وطريق آخر سلكه الناس من العراق الى بلاد الشام يبدأ من (عين النمر) ،
وهو موضع تحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، ويتجه نحو (الأخمدية) ،
ثم الى (الخفية) ، ثم الى (الخلط) ، ثم الى (سوى) ، ثم الى (الأجيفر) ،
ثم الى (الغربة) ، ثم الى (بصرى) ^٢ .

وقد سبق لي أن تحدثت عن بصرى في مواضع من هذا الكتاب . وهي المدينة
التي وصل اليها الرسول مع عمه (أبي طالب) ، وبها كان (بجيرا) الراهب
على ما جاء في كتب السير، واليه كان يقصد تجار مكة ، حيث يتاجرون بأسواقها.
وبها قبر (بجيرا) ، وهو يزار ^٣ .

وأما طرق العربية الشرقية مع العراق ، فقد كان من الجاهليين من يسلك الطرق
المائية فيتجه نحو سواحل الخليج عن طريق الأبله ، فيحاذي الساحل ، ومنهم من
كان يتجه الى الشرق نحو جزر الخليج ، ثم يتجه منها الى ساحل (عمان) ،
ومنهم من كان يسلك طرق البر . وقد ذكر (ابن خردادبه) ، ان الطريق من
البصرة الى عمان على الساحل ، يمر الى (عبادان) ، ثم الى (الحدوثة) ، ثم
الى (عرفجا) ، ثم الى (الزابوقة) ، ثم الى (المقر) ، ثم الى (عصى) ،
ثم الى (المعرس) ، ثم الى (خليجة) ، ثم الى (حسان) ، ثم الى (القرى)
(القرنتين) ، ثم الى (مسلحة) (مسلحة) ، ثم الى (حمص) ، ثم الى
ساحل (هجر) ، ثم الى (العقير) ، ثم الى (قطر) ، ثم الى (السبخة) ،
ثم الى (عمان) ^٤ .

ومن الطرق المهمة التي تربط اليمامة بجنوب العراق ، طريق يأخذ من الأبله
(البصرة) ، ثم يتجه نحو (كاظمة) ، ثم الى منازل ثلاثة لم يذكر أسماءها
(ابن خردادبه) ، ثم الى (القرعاء) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (الصمان) ،

- ١ ابن خردادبه ، المسالك والممالك (٩٩) ، (وسيكون رمزه: المسالك) .
- ٢ المسالك (٩٧) .
- ٣ صبح الاعشى (١٠٨/٤) .
- ٤ المسالك (٦٠) ، قرامة (١٩٣) ، صبح الاعشى (٥٧/٥) .

ثم منازل ثلاثة لم يشر الى اسمها (ابن خرداذبه) ، ومنها الى (جب التراب) ، ثم الى منزلين آخرين ، ومنها الى (سليمة) ، ثم الى (النباك) ، ومنه الى (اليامة) ^١ . ويتفق وصف هذا الطريق ، وأسماء المواضع مع ما ذكره (قدامة بن جعفر) في كتابه (الخراج) سوى ان (ابن خرداذبه) ، يبدأ بالبصرة ، ثم ينتهي باليامة ، أما (قدامة) ، فيبدأ باليامة وينتهي بالبصرة .

ونجد في كتاب بلاد العرب ، للحسن بن عبدالله الاصفهاني وصفاً لطريق آخر يتجه من (حجر) اليامة حتى ينتهي بالبصرة ، ذكر فيه أسماء المواضع ووصف الأرض والمياه ، وينتهي طريقه بـ (سفوان) ، (صفوان) ، المعروف اليوم في العراق . وقد ذكر (كاظمة) ، وذكر أنها على ساحل البحر ، وبها حصن وتجار ودور مبنية ، ثم ذكر أسماء مواضع تقع بينها وبين (سفوان) ^٢ . ولما كانت البصرة اسلامية ، بنيت في زمن (عمر) ، فإن الجاهليين ، كانوا يسافرون من (الأبله) التي حلت البصرة محلها الى جزيرة العرب .

ويبدأ هذا الطريق بالحرملية ، وهو مائة في قف في شعبة عليه نخلات ، ثم تركب القف ، فتأخذ على واد يقال له (ذو جراف) ، فتجزعه عرضاً ، ثم تنتهي الى (المديدان) ، ثم تجزع (الحرملية) ثم وادي (بنبان) حتى تصل (سويس) ، ثم (البديع) ، ثم (الطنب) ، ثم (الجرداء) ، وهي روضة تشرب من وادي جراف . ثم (الراح) . فإذا جزته وقعت في العرمة ، ثم تحترق وادي حرج حتى تنتهي الى (الجرباء) وعلى يسار الجرباء في العرمة ماء يقال له (الرداع) ، فإذا فصلت من العرمة من حيال الجرباء صرت الى وادٍ يقال له (مجمع الأودية) ثم تصير الى (ذات الرتال) ، ثم تنتهي الى (الحفر) ، حفر سعد ، ثم تفوز الى (الدهناء) ، فتصل (خشاخيش) فتقع في معبر ، فتعبر جبال الدهناء ، فتصل الى أبرق يقال له (القنفذ) ، ثم تستقبل (الصمان) ، فتمضي فيه حتى تنتهي الى (المعاء) ، ثم ترد (طويلعا) ، وهو وسط الطريق بين حجر وبين البصرة . وهو موضع فيه ماء وفيه تجار ، وحصن يتحصنون به من اللصوص ^٣ .

-
- ١ المسالك (١٥١) ، كتاب الخراج ، لقدامة (١٩٣) ، (نبذ طبعت مع المسالك) .
 - ٢ بلاد العرب (٣٠١-٣٢٤) .
 - ٣ بلاد العرب (٣٠١-٣١٤) .

ثم تجوز (طويلاً) الى وادٍ يقال له (الشيط) ، فإذا انحدرت من عقبة الشيط تأتي (الوريعة) ، فإذا جزته ، تأتي (الدو) . فإذا فصلت في (الدو) صرت الى (كفة العرفج) ، وفي منقطع (الدو) حين تجوزه وادٍ يقال له (وادي السيدان) ، وعلى الطريق ماء (النحيحة) ، تخرج منه الى (تياس) ، وقريب منه ثم يد يقال له (الفارسي) ، ثم تجوز ثماد أخرى حتى تصل (المخارم) ، فتهبط (كاظمة) . ثم تخرج من (كاظمة) الى (النجفة) ، ثم تمضي الى (الصليف) (الصليب) ، ثم تهبط الى (أيرمي) (أيرمي الركبان) ، وهو علم مبني من حجارة للطريق ، وهو شبه شخص إنسان . ثم تصل (الخزيز) ، ثم تهبط (سفوان) ، ثم تخرج حتى تهبط (الأحواض) ، وهو ماء للسانية ، ثم تصل البصرة^١ .

وهناك طريق يوصل (حجراً) بالكوفة ، يبدأ بالحلب ، وهو ماء في ناحية القف ، لرعاية اليمامة ، ثم تخرج منه فترد القف ، ثم تمضي حتى ترد (بالديبة) ، فإذا خرجت منها وردت ماءً يقال له (الغميم) ، ثم ترد وادياً يقال له (العتلك) ، ثم (مبيض) ، ثم تجوزه الى (تعشار) ، ف (مويه) ، ثم (تلعة) ، ثم (السقيا) ، ثم تجوز الدهناء ، فتعلو قفاً يوصلك الى (المجازة) وهي من طريق مكة الذي يأخذ عليه البصريون ، عليه المنار من بطن فلج . وهي منهل ، ثم تجوزها فتقع في (اللوى) ثم تصير الى (لينة) ، وهي ماء كبيرة ، ثم تسير فترد (زباله) ، وهي سوق من أسواق طريق الكوفة المؤدي الى مكة . فإذا خرجت من (زباله) وردت (القاع) ، ثم تخرج منه الى (العقبة) ثم ترد (الشقوق) ، ثم (واقصة) ، ثم (العذيب)^٢ .

ويذكر علماء اللغة ان العرب أطلقت (القعقاع) على الطريق من اليمامة الى الكوفة ، وذكر بعضهم الى مكة^٣ .

وكان بين أهل (الحيرة) وبين أهل مكة اتصال تجاري وثيق ، بل واتصال ثقافي أيضاً ، فنها حمل الخط العربي الى مكة على رواية أهل الأخبار . وكان

١ بلاد العرب (٣٠١-٣٢٤) .

٢ بلاد العرب (٣٢٧-٣٣٥) .

٣ تاج العروس (٤٧٧/٥) ، (قع) .

التجار يرحلون منها الى (القادسية) ، وهو موضع معروف سبق ان تحدثت عنه ،
وبه كانت وقعة القادسية^١ . ومنه الى (العذيب) ، وهو مسلحة بين العرب
وفارس في حد البرية ، وبها حائطان متصلان من القادسية الى العذيب ومن الجانبين
كليهما نخل^٢ ، وبالعذيب أحساء ، غزير الماء ، يخرج الماء خريراً من قوة اندفاعه
على ما يفهم من شعر ورد على لسان بعض الضبيين^٣ . ويخرج الانسان من العذيب
فيدخل المفازة ، ويكون بنجد حتى يبلغ موضع (ذات عرق)^٤ . والعذيب بين
القادسية ومغيشة ، وفي الحديث ذكر العذيب . وهو ماء لبني تميم . وهو طرف
أرض العرب^٥ .

ويتجه الطريق من (العذيب) الى المغيشة ، وفيها بركة^٦ . وماؤها ماء السماء ،
ثم يتجه الى (وادي السباع) ، ثم الى (القرعاء)^٧ ، وفيه آبار ، ثم الى
(واقصة)^٨ ، ثم الى (العقبة) ، وبها آبار^٩ ، ثم الى (القاع) ، ومن
(القاع) الى (زباله) ، ومن (زباله) الى (الشقوق) ، ومن (الشقوق)
الى (البطان) ، وهو قبر العبادي^{١٠} : ثم الى (الثعلبية) ، وهو ثلث الطريق

- ١ المحبر (١٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢) .
- ٢ المسالك (١٨٥) ، بلاد العرب (٣٣٤ ، ٣٣٧) ، تاج العروس (٣٧٠ / ١) ، (عذب) ،
المفصل (٢٢٥ / ٤) وما بعدها .
- ٣ المحبر (٢٤٨) .
- ٤ المسالك (١٢٥) .
- ٥ تاج العروس (٣٧٠ / ١) ، (عذب) .
- ٦ المسالك (١٢٥ - ١٢٨) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٥) .
- ٧ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٢٩٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥) ، تاج
العروس (٤٦٣ / ٥) ، (قرع) .
- ٨ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) ، بلاد العرب (٣٣٤ ، ٣٣٥) ، تاج العروس
(٤٤٥ / ٤) ، (وقص) .
- ٩ المسالك (١٢٦) ، قدامة (١٨٦) بلاد العرب (٣٣٥ ، ٣٣٤) .
- ١٠ « البطان » ، « البطانية » ، ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، المسالك (١٢٦) ، قدامة
(١٨٦) ، و « بطن بين الشقوق والثعلبية في طريق الكوفة » وأنشد نصر :
أقول لصاحبي من الناسي وقد بلغت نفوسهم الحلوقا
إذا بلغ المطي بنا بطاناً وجزنا الثعلبية والشقوقا
وخلفنا زباله ثم رحنا فقد وأبيك خلفنا الطريقا
تاج العروس (١٤٢ / ٩) ، (بطن) .

فيها برك^١ ، ثم الى (الخزيمية) ، وهي مدينة سميت (خزيمة) لأن خزيمة صير فيها سواني ، وكانت تسمى (زرود)^٢ ، ثم الى (الأجر)^٣ ، ثم الى (فيد) ، وهي نصف الطريق ، وبها منزل العامل في الاسلام . وبها أسواق وقناة وزروع ، وبرك وآبار وعميون جارية ، وقد عظم شأنها في الاسلام ، ذكر أن بها حصناً ، عليه باب حديد وعليها سور دائر ، وكان الحجاج يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قرب (أجا) و (سلمى) جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر (زهير بن أبي سلمى) ، إذ قال :

ثم استمروا وقالوا إن مشربكم ماء بشرقي سلمى فيد أو ركك^٤

وتقع في فلاة في الأرض بين أسد وطيء ، اقطعها الرسول الى (زيد الخيل)^٥ . ثم الى (توز) ، فيها برك وآبار وحصن بناه (أبو دلف)^٦ . ثم الى (سميراء)^٧ ، ثم الحاجر^٨ . فعدن القرشي ، وهو (معدن النقرة)^٩ . وعنده تفرق الطريق ، فمن أراد مكة نزل (المغيبة) ، ومن أراد (المدينة) أخذ نحو العسيلة فهبطها . وهو منزل حاج العراق بين (اضاخ) و (ماوان) . وفيه بركة وثلاثة آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبشران تعرفان بالرشيد وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس وماؤهن عذب^{١٠} .

فمن أخذ على المدينة ، فمن المعدن الى العسيلة ، ثم الى بطن نخل ، ثم الى

- ١ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، « الثعلبية بطريق بكة حرسها الله تعالى على جادتها من الكوفة حتى منازل أسد بن خزيمة » ، تاج (١٦٥/١) ، (ثعلب) .
- ٢ قدامة (١٨٦) ، المسالك (١٢٧) ، (والخزيمية ، منزلة للحجاج بين الاجفر والثعلبية) تاج العروس (٢٧٥/٨) ، (خزم) .
- ٣ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (١٠٦/٣) ، (جفر) .
- ٤ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .
- ٥ تاج العروس (٤٥٧/٢) ، (فيد) .
- ٦ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) ، تاج العروس (١٢/٤) ، (توز) .
- ٧ يا رب جار لك بالحزير بين سميراء وبين توز
- ٨ تاج العروس (٢٧٨/٣) ، (سمر) .
- ٩ تاج العروس (١٢٦/٣) ، (حجر) .
- ٩ المسالك (١٢٧) ، قدامة (١٨٦) .
- ١٠ تاج العروس (٥٨٢/٣) ، (نقر) .

الطرق ، ثم الى المدينة ^١ . وهي (يثرب) . وذكر بعض أهل الأخبار ان (مرزبان البادية) كان قد عيّن على المدينة في الجاهلية عاملاً يجبي خراجها ، وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملكوها على المدينة على الأوس والخزرج ، وفي ذلك يقول شاعر الأنصار :

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير^٢

ومن المدينة الى (السبالة) ، ومنها الى (الروحاء) ، ثم الى (الرويثة) ، ومنها الى (العرج) ، ثم الى (السقيا) ، ثم الى (الأبواء) ، ثم (الجحفة) ، ثم الى (قديسد) ، ثم الى (عسفان) ، ثم الى (مر الظهران) ، ثم الى مكة ^٣ .

ومن أراد (مكة) قصد (مغيشة الماوان)^٤ ، ومن (مغيشة) الى (الربذة) وماؤها كثير . واليها هاجر (أبو ذر) الغفاري ، وبها مدفنه . وقد خربت سنة (٣١٩) للهجرة بالتمرامطة^٥ . ومن الربذة الى معدن بني سليم ، ومن معدن بني سليم الى العمق ، ومنه الى (أفاعية)^٦ (الأفيعية) الى (المسلح) ، ثم الى (الغمرة) ، ومنه يعدل الى اليمن ، ومن الغمرة الى (ذات عرق) ، ومنه يقع الاحرام^٧ ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى بستان بني عامر (بستان ابن عامر) ، ثم غمر ذي كندة ، ثم مشاش ، ثم مكة ^٨ .

ويلاحظ أن هذا الطريق هو من أقصر الطرق المؤدية من (الحيرة) الى (المدينة) ، وهو يمر بجبلي (طيء) ، أي (جبل شمر) في الوقت الحاضر . ويمر على (حائل) بجبلي طيء ، وهو مدينة في الوقت الحاضر ورد ذكرها في شعر (امرئ القيس) إذ يقول :

-
- ١ المسالك (١٢٨) ، قدامة (١٨٧) .
 - ٢ المسالك (١٢٨) .
 - ٣ الصفة (١٨٤ وما بعدها) .
 - ٤ قدامة (١٨٦) ، (بين معدن النقرة والعمق عند ماوان) ، تاج العروس (١/٦٣٧) ، (غوث) .
 - ٥ تاج العروس (٢/٥٦٢) ، (ريد) .
 - ٦ تاج العروس (١٠/٢٨٢) ، (فعا) .
 - ٧ قدامة (١٨٦) .
 - ٨ المسالك (١٣٢) .

يا دار ماوية بالخائل فالفرد فالجيتين من عاقل^١

وبجبل (سلمى) مدينة اسمها (أرك) ، عرفت بمدينة (سلمى) ، وأصحابها من (طيء) : وقد انحاز إليها (خالد بن الوليد) ، لما أرسله (أبو بكر) من (ذي القصة) لمحاربة المرتدين^٢ . وقد نزل (خالد) بأجأ ، ثم تعبأ لملاقاة (طليحة الأسدي) ، فالتقى به على (بزاحة)^٣ .

ويسلك هذا الطريق في الوقت الحاضر الحجاج الذين يقصدون الحج عن طريق النجف بالسيارات .

و (الربذة) من القرى القديمة في الجاهلية ، وهي عن المدينة من جهة الشرق على طريق حاج العراق على نحو ثلاثة أيام سميت بـ (خرقة الصائغ) ، بها مدفن (أبي ذر)^٤ .

ومعدن بني سليم ، هو لبني سليم ، الذين غزاهم الرسول غزوة (قرارة الكدر) ، ويقال : «قرقرة بني سليم وغطفان» ، لما بلغه ان بقرارة الكدر جمعاً من غطفان وسليم يريد الكيد للمسلمين^٥ . و (الكدر) ماءة لبني سليم في ديار غطفان ناحية المعدن^٦ . والى هذا الموضع أيضاً وصل الرسول في غزوته المعروفة بغزوة السويق ، وسببها ان (أبا سفيان) نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، انتقاماً لبدر ، فسلك النجدية حتى نزل بصدور قناة الى جبل يقال له (تيت) ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج الى (بني النضير) ، ثم خرج فأرسل رجالاً من قريش الى ناحية من المدينة يقال لها (العريض) ، فحرقوا في أصوار من نخل لها ، وقتلوا رجلين ، ثم انصرفوا راجعين ، فخرج رسول الله في طلبهم حتى بلغ (قرقرة الكدر) ، فوجد ان (أبا سفيان) قد فاته وأصحابه ، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب الدقيق ويتخفون ، وكان

- ١ تاج العروس (٢٩٥/٧) ، (حول) .
- ٢ الطبري (٢٥٤/٣) وما بعدها ، تاج العروس (١٠١/٧) ، (أرك) .
- ٣ الطبري (٢٥٥/٣) ، تاج العروس (٢٥٣/٢) ، (بزخ) .
- ٤ ابن رسته (١٧٩) ، تاج العروس (٥٦٢/٢) ، (ربن) .
- ٥ امتاع الاسماع (١٠٧/١) .
- ٦ تاج العروس (٥١٨/٣) ، (كدر) ، (٤٩٠/٣) وما بعدها ، (قرر) ، الطبري (٤٨٢/٢) .

ذلك عامة زادهم ، فلذلك سميت غزوة السويق^١ .

وقد غزا الرسول (بنى سليم) مرة أخرى فسار عليهم حتى بلغ موضع (بحران) معدناً بالحجاز من ناحية الفرع ، فلما لم يجد أحداً منهم ، وكانوا قد تفرقوا رجع عنهم . ويظهر ان قريشاً كانوا قد جاءوا اليهم ، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة ، بدليل ما ورد في خبر هذه الحملة من انه « غزا يريد قريشاً وبنى سليم »^٢ .

و (بحران) موضع بناحية الفرع من الحجاز ، به معدن للحجاج بن علاط البهري^٣ . و (الفرع) بالحجاز ، من أضخم أعراض المدينة^٤ .

وهذا الطريق هو الطريق الذي كان أهل مكة في الجاهلية يسلكونه الى العراق . ولما خافت قريش طريقها الذي كانت تسلك الى الشام حين كان من وقعة (بدر) ما كان ، قررت سلوك طريق العراق ، أي هذا الطريق ، واستأجرت لها دليلاً خريشاً بالطرق عالماً بها ، هو (فرات بن حيان) ، وخرجت القافلة تحمل مالاً كثيراً ، فيه فضة كثيرة ، وهي عظم تجارتهم ، سلكت طريق (ذات عرق) ، ثم خرج الدليل بهم على (غمرة) ، وانتهى الى النبي خبر العير وفيها المال الكثير ، فأرسل (زيد بن حارثة) على سرية ، التقت بالقافلة بموضع (القردة) ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم . وأتى بدليلها أسيراً ، وخست الغنائم ، فبلغ الخمس عشرين ألف درهم^٥ .

وقد ذكر (الهمداني) ، أسماء منازل طريق الكوفة - يثرب ، والكوفة - مكة على هذا النحو . الكوفة ، فالقادية ، فالمغيثة ، ثم القرعاء ، ثم واقصة ، ثم العقبة ، ثم القاع ، ثم زبالة ، ثم الشقوق ، ثم البطان ، ثم الخزيمية ، ثم الأجر ، ثم فيد ، ثم توز ، ثم سمراء ، ثم الحاجر ، ثم معدن النقرة ، ثم العسيلة ، ثم بطن نخل ، ثم الطرف ، ومنه الى المدينة .

- ١ الطبري (٤٨٣/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (١١٩/٢) ، (حاشية على الروض) ، امتاع الاسماع (١٠٦/١) .
- ٢ الطبري (٤٨٧/٢) ، ابن هشام (١٢٠/٢) ، امتاع الاسماع (١١١/١ وما بعدها) .
- ٣ تاج العروس (٣١/٣) ، (بحر) .
- ٤ تاج العروس (٤٤٩/٥) ، (فرع) .
- ٥ الطبري (٤٩٢/٢) ، امتاع الاسماع (١١٢/١) ، ابن هشام (١٢١/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .

ومن الطرف يؤدي الطريق الى مكة، فيمر بالسيالة ، ثم الروحاء ، ثم الرويثة، ثم العرج ، ثم السقيا ، ثم الأبواء ، ثم الجحفة ، ثم قديد ، ثم عسفان ، ثم مرت الظهران ، ثم مكة ^١ .

ومن أخذ الجادة من مكة الى معدن النقرة ، فن مكة الى البستان ، ثم ذات عرق ، ثم الغمرة ، ثم المسلح ، ثم الأفيعية ، ثم حرة بني سليم ، ثم العمق ، ثم السليلة ، ثم الربذة ، ثم ماوان ، ثم معدن النقرة . وهو ملتقى الطريقين ^٢ .

وقد عرف طريق العراق من الكوفة الى مكة بـ (المثقب) . يقال : سلكوا المثقب ، أي مضوا الى مكة . وقيل انه طريق ما بين اليمامة والكوفة . وذكر بعض العلماء انه طريق كان بين الشام والكوفة وكان يسلك في أيام بني أمية . ويظهر ان الاسم من الأسماء القديمة ، بدليل اختلاف العلماء في تعليل التسمية ، فقال بعضهم سمي لمرور رجل به يقال له مثقب ، وقال بعض آخر سمي بذلك لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير الى الصين فأخذ ذلك الطريق فسمي به ^٣ .

وكان حاج البصرة اذا أرادوا الحج ، اتجهوا الى (المنجشانية) على ستة أميال من البصرة ، تنسب الى (منجش) مولى (قيس بن مسعود) ^٤ ، ثم الى (الحفير) ، وهو ركايا ما بين (ماوية) و (المنجشانيات) ^٥ ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الخرجاء) ، وهو ماء احتفرها (جعفر بن سليمان) على طريق حاج البصرة ^٦ ، ثم الى (الحفر) ^٧ ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى ذات العشر ، ثم الى (الينسوعة) ، ينسوعة القف ، منهل من مناهل طريق مكة على جادة البصرة ، بها ركايا كثيرة عذبة الماء عند منقطع رمال الدهناء بين ماوية النجاج ^٨ . ثم الى

- ١ الصفة (١٨٣ وما بعدها) .
- ٢ الصفة (١٨٥) .
- ٣ تاج العروس (١/١٦٦) ، (ثقب) ، ابن دريد ، جمهرة اللغة (١/٢٠٣) ، الصفة (١٧٦،١٧٣) ، البلدان (٤/٤١٤) .
- ٤ تاج العروس (٤/٣٤٨،٢٥٤) ، (م/ج/ش) ، (نجش) .
- ٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
- ٦ تاج العروس (٢/٣٢) ، (خرج) .
- ٧ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
- ٨ تاج العروس (٥/٥٢٣) ، (نسع) .

(السُّمَيْنَةُ) ، أول منزل من النباج لقاصد البصرة^١ ، ثم الى (النباج) ، ويقال له نباج بني عامر بن كريز ، وهو بحذاء (فيد) ، وبه يوم من أيام العرب ، مشهور لتميم على بكر بن وائل . وقد استنبط مائه (عبدالله بن عامر ابن كريز) ، شقق فيه عيوناً وغرس نخلاً ، وسكن به رهطه بنو كريز^٢ . و (عامر بن كريز بن ربيعة) القرشي العبشمي ، والد (عبدالله) ، وهو من المحققين في قریش ، ذكر انه أسلم يوم الفتح ، وكان ابنه (عبدالله) أميراً على البصرة زمن عثمان^٣ ، كما كان صهرراً لمعاوية ، ومن أغنياء المسلمين^٤ .

ومن النباج الى (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (رامنة) ، ثم الى (امرة) ، ثم الى (طخفة) ، ثم الى (ضرية) ، ثم الى (جديلة) ثم الى (فلجة) ، ثم الى (الدثينة) (الدفينية) . ثم الى (قبا) ، ثم الى (مران) ، ثم الى (وجرة) ، ثم الى (أوطاس) ، ثم الى (ذات عرق) ثم الى بستان ابن عامر ، ثم الى مكة^٥ .

ويلاحظ أن مبدأ هذا الطريق ، قد عمر في الاسلام ، وذلك بسبب تأسيس البصرة ، ولكنه يسلك أيضاً الطريق الجاهلي القديم في مواضع كثيرة منه .

و (بستان ابن عامر) عند مكة ، ويرى بعض العلماء أن هذه التسمية مغلوطه وأنها من أقوال سواد الناس وأن الصحيح بستان ابن معمر ، وهو مجتمع النخلتين البانية والشامية^٦ . بينما يرى بعضهم العكس ، إذ قال : « وبستان ابن عامر بنخله . هو عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة . ولا تقل بستان ابن معمر ، فإنه قول العامة »^٧ . وورد أيضاً « بستان ابن عامر لعمر بن عبدالله بن معمر ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي ، ولكن الناس غلطوا فيها ، فقالوا : بستان ابن عامر ، وبستان بني عامر ، وإنما

- ١ تاج العروس (٢٤٢/٩) ، (سمن) .
- ٢ تاج العروس (١٠٣/٢) ، (نبج) .
- ٣ الاصابة (٢٤٨/٢) ، (رقم ٤٤١٨) .
- ٤ المحبر (٤٥٠ ، ٤٤٠ ، ٣٨٧ ، ٣٦٣ ، ٣٤٦ ، ١٥٠ ، ٥٧ ، ٤٧) .
- ٥ المسالك (١٤٦ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) ، بلاد العرب (٣٧١) .
- ٦ بلاد العرب (٣٧٤) ، تاج العروس (٤٢٤/٣) ، (عمر) .
- ٧ تاج العروس (٤٢٤/٣) ، (عمر) .

هو بستان ابن معمر ، وقوم يقولون نسب الى ابن عامر الحضرمي ، وآخرون يقولون نسب الى ابن عامر بن كرز «^١ . وذكر أنه على مقربة من هذه البستان موضع يقال له (المسدّ) ، وهو مأسدة^٢ .

ويقع موضع (السّيّ) ، وهو ماء من ذات عرق الى (وجرة) على ثلاث مراحل من مكة الى البصرة وخمس من المدينة . فهو من منازل طريق البصرة - مكة . واليه أرسل الرسول (شعجاع بن وهب) الأسدي ، على (بني عامر) بناحية (ركبة)^٣ . ووجرة في طريق البصرة . وأما (ذات عرق) فحد يفصل في عرف علماء جزيرة العرب بين الحجاز ونجد . فن ذات عرق الى الغرب الحجاز ، ومن ذات عرق مشرقاً ، فهو نجد^٤ . وإذا جزت (وغرة) ووجرة فأنت في نجد الى أن تبلغ (العذيب) ، و (غمرة) في طريق الكوفة^٥ . وهي فصل ما بين تهامة ونجد^٦ .

وعلى مقربة من (ذات عرق) ، يقع قبر أبو رغال في موضع يقال له (الغمير)^٧ ، بين ذات عرق وبين البستان^٨ .

وقد ذكر (القلقشندي) طريقاً يبدأ بالبصرة ويتجه نحو (الهامة) ، على هذا النحو : (البصرة) ، ثم (المنجشانية) ، ثم الى (الكفير؟) (الحفير) ، ثم الى (الرحيل) ، ثم الى (الشجى) ، ثم الى (الحفر) ، ثم الى (ماوية) ، ثم الى (ذات العشر) ، ثم الى (الينسوعة) ، ثم الى (السمنية) ، ثم الى (النباج) ، ثم الى (العمومية؟) (العوسجة) ، ثم الى (القريتين) ، ثم الى (سويقة) ، ثم الى (صداة) ، ثم الى (السدّ) ، ثم الى (السقي) ،

- ١ البلاذري ، فتوح (٦٣) .
 - ٢ تاج العروس (٣٧٤/٢) ، (سدّد) .
 - ٣ امتاع الاسماع (٣٤٤/١) .
 - ٤ بلاد العرب (٣٣٦ ، ١٧٨ ، ١٥) .
 - ٥ بلاد العرب (٣٣٦) .
 - ٦ تاج العروس (٤٥٥/٣) ، (غمر) .
 - ٧ كزير :
 - ٨ قال امرؤ القيس :
- ودون الغمير عامدات لففوراً
كأثل من الاعراض من دون بثشة
تاج العروس (٤٥٥/٣) ، (غمر) .

ثم الى (المنبية) ، ثم الى (السفح) ، ثم الى (المريقة) ، ثم الى (اليامة)^١ .
وذكر (الهمداني) أسماء بعض المواضع التي كان يسكنها المسافرون من الكوفة
الى العراق ، وهي الطرق السالكة التي عرفت بـ (المحجة) ، لأنها طرق الحج^٢ .

وقد ذكر (الهمداني) أسماء مواضع يمر بها الطريق من (نجران) الى البصرة .
وهي : نجران ، ثم كوكب ، ثم الحفر ، ثم العقيق ، وهو معدن ذهب ، ثم
(الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الخضرمة) ، ثم (الفقى) ، ثم البصرة^٣ .

وإذا أراد أهل اليامة السفر الى مكة ، سافروا الى العرض ، وهو بطن العرض ،
عرض بني حنيفة ، الوادي المعروف اليوم باسم الباطن ، وفيه مياه وقرى^٤ ، ثم
(الحديقة) ، ثم الى (السيج) ، وهو سيج (آل ابراهيم بن عربي) والى
اليامة في عهد (عبد الملك) و (هشام)^٥ ، ثم الى (الثنية) ، ثم الى (سقراء) ،
ثم الى (السد) ، ثم الى صداة ، ثم الى (شريفسة) ، ثم الى (القريتين)
من طريق البصرة ، فيتصل الطريق بطريق البصرة ، ويسلكها على نحو ما مر^٦ .
وقد ذكر (قدامة) منازل هذا الطريق على هذا النحو : (العرض) ، ثم
(حديقة) ، ثم (السيج) ، ثم (الثنية العقاء) ، ثم (سقراء) ، ثم
(السد) ، ثم (مراره) ، ثم (سويقة) ، ثم (القريتين) ، ثم طريق
البصرة^٧ .

ونجد في (بلاد العرب) وصف طريق يبدأ بـ (حجر) اليامة وينتهي بمكة .
ويبدأ بـ (بطن العرض) ، ثم (السيج) ، ثم (ثنية الأحيسي) ، ثم ناحية
من (قرقرى) اليامة ، ثم (المنفطرة) ، ثم (العزبز) ، ثم (الوركة) ،
ثم (أهوى) و (أضيمر) ، ثم (العفاة) ، ثم (عكاش) ، ثم (المروت) ،
ومنه الى (السحامة) وعليها طريق المنار . واذا جرت أهوى ، فن وراثها موهبة

- ١ صبح الاعشى (٦١/٥) .
- ٢ الصفة (١٣١) .
- ٣ الصفة (١٦٦) .
- ٤ بلاد العرب (٣٦١) .
- ٥ بلاد العرب (٣٦١) .
- ٦ المسالك (١٤٦ وما بعدها) .
- ٧ قدامة (١٩١) .

يقال لها (الأسود) ، ثم تعبر رملة يقال لها (جراد) ، ثم تصل (الهلباء) بحايل ، فإذا جزت (الهلباء) وقعت في واد ، تجوزه فترد (عكاشا) ، ثم ترد (العيصان) ، وهو معدن ، ثم ترد معدن الأحسن ، وهو من أول عمل المدينة ، ثم تجوزه الى (العلكومة) ، ثم ترد (الدثينة) (الدفينة) ، قرية على طريق البصرة الى مكة^١ . ثم يسلك هذا الطريق المواضع التي ذكرتها عند حديثي على طريق البصرة - مكة .

وكان لأهل اليمامة طرق توصلهم الى اليمن ، منها طريق يؤدي الى (الخرج)^٢ ، ثم الى (نبعة) ، ثم الى (المجسازة) ، و (المعدن) ، و (الشفق) ، (الشفق ؟) ، ثم (الثور) ، ثم (الفلج) ، وهو قرية كبيرة بها نخيل ومزارع وعين يقال لها (الذبا) يخرج منها سبعة عشر نهراً ، وهي من الأفلاج^٣ . ثم (الصفا) ، وبئر الآبار ونجران ، ثم الحمي وبرانس ، ومربيع ، والمهجرة^٤ . ثم يسلك طريق المهجرة المؤدي الى صنعاء^٥ .

وذكر (الهمداني) طريقاً يصل نجران باليمامة ثم ينتهي بالبصرة . ومعنى ذلك طريق يوصل البصرة باليمن ، فنجران من أهم عقد الطرق المؤدية الى اليمن . ويبدأ الطريق بنجران، ومنها الى (كوكب) ، ثم الى (الحفر) ، ثم (العقيق) ، وهو معدن يعق عن الذهب ، وهو لجرم وكندة ، ثم (المقرب) ، ثم (الفلج) ، ثم (الخرج) ، ثم (الحضرمة) ، ثم (الفقى) ، وهو طرف اليمامة ، ثم البصرة^٦ .

وذكر (الهمداني) أن من يريد التوجه من (الفلج) الى اليمامة ، سلك طريق (العقيمة) ، أو (خمسة) . ومن أخذ (الثفن) من الفلج الى اليمامة أخذ أسافل أودية جعدة ، فيأخذ الغادي على أسفل الغيل من الثفن ، ثم يقطع (غلغل) و (الشجة) و (النضخ) ، فإن أحب شرب بدلاميس ، ثم نسلة

-
- ١ بلاد العرب (٣٦١ - ٣٧١) .
 - ٢ تاج العروس (٢٩/٢) ، (خرج) ، بلاد العرب (٢٣٣،٣) .
 - ٣ بلاد العرب (٢٢١ وما بعدها) ، الصفة (١٥٩ وما بعدها) ، تاج العروس (٨٦/٢) وما بعدها .
 - ٤ قدامة (١٩٣) .
 - ٥ المسالك (١٥٢ وما بعدها) ، الخراج (١٩٣) .
 - ٦ الصفة (١٦٦) .

الى الخرج ، وإن أحب شرب بالمرء ، ثم برك ثم بريك^١ .

وإذا أراد أهل البحرين التوجه إلى اليمامة ، صعدوا الطريق ، فيكون عن يمينهم (خرشيم) ، وهي هضاب وصحراء مطرحة إلى (الحفرين) وإلى (السلحين) ، ثم (الحابسية) ، ثم (مُزَلَّقَة) ، ثم (الموارد) ثم الفروق الأدنى ثم الفروق الثاني ، ثم الخوار ، خوار الثلج ، ثم الصليب ، وعن يمينك الصلب ، صلب المعى والبرقة برقة الثور . ثم الصمان ، ثم ترجع إلى طريق (زَرَى) ، فعن يسارك (الدُّيب) ، وعن يمينك (الدحرض) ، ثم تقطع بطن (قو) ، ثم السمراء ، ثم تأخذ في الدهناء وتأخذ على الشجرة ، ثم إلى (الخلل) نخل الرمل ، ثم قَلَّتْ هبل ، ثم (النظيم) نظيم الجفنة ، ثم شباك العرمة والغرابات ، ثم تقطع العرمة و (شيعاً) ، ثم تسير في (السهباء) ، ثم تقطع جبيلات يقال له (أنقد) ، ثم الروضة ، ثم ترد (الحضرمة) جو الحضارم . وهي أول اليمامة قبل البحرين^٢ .

وكان لأهل نجد جملة طرق يسلكونها في اتجاههم نحو (مكة) أو المدينة أو اليمن . وقد عرف طريق نجد إلى مكة بـ (الجلال) وبـ (مثقب) وبـ (القعقاع)^٣ . وذكر أن (المثقب) طريق العراق من الكوفة إلى (مكة) ، وكان فيما مضى طريقاً بين اليمامة والكوفة يسمى (مثقباً) ، وذكر أنه طريق العراق إلى مكة . وقد أوجدوا لذلك جملة تعاليل لحل مشكلة التسمية . فقالوا : إنه سُمِّيَ مثقباً لمرور رجل به يقال له مثقب . وقالوا : بل لأن بعض ملوك حمير بعث رجلاً يقال له مثقب على جيش كثير إلى الصين ، فأخذ ذلك الطريق فسمي به . وذكر بعض آخر . أنه طريق كان بين الشام والكوفة ، وكان يسلك في أيام بني أمية^٤ .

وذكر أن (القعقاع) الطريق لا يسلك إلا بمشقة ، وهو طريق من اليمامة إلى الكوفة ، وقيل إلى مكة^٥ .

١ . الصفة (١٥٠) .

٢ . الصفة (١٣٨) وما بعدها .

٣ . تاج العروس (٢٦٠ / ٧) ، (جلد) .

٤ . تاج العروس (١٦٦ / ١) ، (ثقب) .

٥ . تاج العروس (٤٧٧ / ٥) ، (قعقع) .

ويكون طريق نجد الى المدينة ومكة جزءاً من طريق العراق إلى المدينتين، وقد ذكرت أسماء بعض المواضع التي يسلكها القادمون من الكوفة أو الحيرة ثم من البصرة إلى المدينة أو مكة ، وهي تمرّ بعد اجتيازها حد العراق بنجد . ومن هذه المواضع : (القردة) (القردة) ، الذي كانت إليه سرية (زيد بن حارثة) للتعرض بقافلة لقريش تنكبت طريق الشام خوفاً من تحرش المسلمين بها وسلكت طريق العراق في الشتاء ، فالتقى بها (زيد بن حارثة) بهذا الموضع فظفر بالعبير^١.

ومن مواضع طرق نجد (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد) ، به ماء لبني أسد ابن خزيمه بنجد . واليه أرسل الرسول ، (أبا سلمة بن عبد الأسد) ، لما بلغه ان (طليحة) و (سلمة) ابن خويلد ، قد استعدا لحرب رسول الله . وقد نكب بالسرية عن الطريق وسار بها ليلاً ونهاراً حتى يعجل بها إلى ملاقاتها ، فنذر بهم القوم وتفرقوا ، ثم عاد بعد أن وجد سرحاً ومعه ثلاثة رعاء ممالك^٢ . و (قطن) جبل في غرب (القصيم) من نجد لا زال معروفاً بقرب بلدة (الفوارة)^٣ .

و"نجد" في اصطلاح بعض العلماء ، ما بين (العذيب) الى (ذات عرق) وإلى اليمامة وإلى اليمن وإلى جبلي طيء ، ومن المربد إلى (وجرة) . وذات عرق أول تهامة إلى البحر . وذكر ان الأعراب يقولون : إذا خلفت (عجلز) مصعداً ، فقد أنجدت . و (عجلز) فوق (القريتين) ، فإذا أنجدت عن ثنانيا ذات عرق ، فقد آهمت ، فإذا عرضت لك الحارر بنجد قيل ذلك الحجاز . وذكر أن نجداً الأريضة التي تقع جنوب العراق والشام ، وشمال تهامة واليمن . وذكر أن كل ما وراء الخندق على سواد العراق ، فهو نجد . والغور كل ما انحدر سيله مغربياً وما أسفل منها مشرقياً فهو نجد . وتهامة ما بين ذات عرق إلى مرحلتين من وراء مكة ، وما وراء ذلك من المغرب فهو غور ، وما وراء ذلك من مهب الجنوب فهو السراة إلى تخوم اليمن^٤ .

وأما طرق العربية الغربية ، فأهمها الطرق الممتدة من بلاد الشام إلى اليمن ، وتتصل بها الطرق الآتية من مصر . وقد كان الجاهليون يقصدون دمشق للتجارة

- ١ امتاع الاسماع (١١٢/١) ، تاج العروس (٤٥٠/٢) ، (فرد) .
- ٢ امتاع الاسماع (١٧٠/١) ، تاج العروس (٣١٢/٩) ، (قطن) .
- ٣ العرب (١٩٦٨) ، (ح ١١ ص ٩٧٧) .
- ٤ تاج العروس (٥٠٩/٢) ، (نجد) .

بها وللاصطياف ، ولزيارة أمراء الغساسنة الذين كانوا قد امتلكوا قصوراً بها ، غير أن بعضاً منهم كان يقف عند (بصرى) ، يتاجر في أسواقها ثم يعود . ومنهم من كان يتوجه الى (غزة) ، للتجارة بها لوجود تجار بها قصدوها من سواحل البحر الأبيض ، معهم تجارة ساحل البحر . وقد كان (هاشم) ممن قصد هذه المدينة .

ويبدأ طريق دمشق بـ (الكسوة) ومن (الكسوة) الى (جاسم) ، وهو موضع ورد ذكره في شعر لحسان بن ثابت ، إذ قال :

قد عفا جاسم الى بيت رأس فالجوابي فحارث الجولان^١

ومن (جاسم) الى أفيق ، وأفيق من أعمال حوران ، وهو عقبية طويلة ، وأفيق في أول العقبة ينحدر منها الى غور الأردن ومنها يشرف على طبرية^٢ . ومن (أفيق) الى (طبرية) . وتعد (سرغ) ، في آخر الشام وأول الحجاز ، بين (الغنية) و (تبوك) ، وفيها لقي (عمر) أمراء الأجناد^٣ ، ثم (تبوك) وهي قرية مهمة يرد خبرها في أخبار غزوات الرسول ، إذ عرفت بغزوة (تبوك) . وبها صالح رسول الله (يحنة بن ربيعة) ، صاحب أيلة ، وأهل جرباء وأذرح^٤ .

ومن (تبوك) يتجه الطريق الى (المحدثنة) ثم الى (الأقرع) ، ثم الى (الجنيينة)^٥ ، ثم الى (الحجر) ، وهي في نظر أهل الأخبار ديار ثمود وبلادهم ، وقد أشير إليها في القرآن : « كذب أصحاب الحجر المرسلين »^٦ ، وقد مر بها رسول الله في غزوته لتبوك ، ونهى عن دخول مساكنها وعن الشرب من مائها ، واستحث راحته ، وأسرع حتى خلفها^٧ . وذكر « ان بيوتها منحوتة في الجبال مثل المغاور ، كل جبل منقطع عن الآخر ، يطاف حولها ، وقد نقر فيها بيوت

١ المسالك (٧٨) ، تاج العروس (٢٢٨/٨) ، (جسم) .

٢ تاج العروس (٥٤/٧) ، (فوق) .

٣ تاج العروس (١٦/٦) ، (سرغ) .

٤ الطبري (١٠٠/٣) وما بعدها ، تاج العروس (١١٣/٧) ، (باك) ، ابن سيد الناس (٢١٥/٢) وما بعدها .

٥ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .

٦ الحجر ، الرقم ١٥ ، الآية ٨٠ .

٧ تفسير الطبري (٣٤/١٤) . ابن سيد الناس (٢١٨/٢) .

تقلّ وتكثر على قدر الجبال التي تنقر فيها. وهي بيوت في غاية الحسن فيها بيوت وطبقات محكمة الصنعة وفي وسطها البئر التي كانت تردّها الناقة^١. وهي قرية لا تزال معروفة مسكونة^٢.

ثم إلى (وادي القرى) ، فتمر القوافل في قرى عديدة ، ثم إلى (الرحبية)، ثم إلى (ذي المروة) ، وهو قرية بين (ذي خشب) ، و (وادي القرى)^٣ ، ثم إلى (المر) ، ثم إلى (السويداء)^٤ ، ثم إلى (ذي خشب)^٥ ، وهو وادي على مسيرة ليلة من المدينة ، ذكر في الأحاديث والمغازي ، ويقال له (وادي خشب) ، فيه عيون^٦ ، ثم إلى المدينة^٧.

ولما سار الرسول الى (تبوك) نزل (ذا خشب) ، ثم (ثنية الوداع) ، ثم مرّ بوادي القرى ، ثم بالحجر ، ثم تبوك^٨.

وهناك طريق يمتد من (أيلة) إلى (حقل) ، ثم (مدين) ، ثم إلى الأغواء ، ثم إلى (الكلابية) ، ثم إلى (شغب) ، ثم إلى (بدا) . وشغب موضع ذكر في حديث الزهري ، انه كان له مال بشغب وبدا ، وهما موضعان كانا في الشام ، وبه كان مقسم (علي بن عبدالله بن عباس) وأولاده الى أن وصلت اليهم الخلافة . وبشغب مات الزهري ، وهو (أبو بكر محمد بن مسلم ابن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري) ، المدني ، مات سنة (١٢٤ هـ) في أمواله بها . وذكر انه قبر بأداما ، وهي خلف شغب وبدا ، وهي أول عمل فلسطين وآخر عمل الحجاز ، وبها ضيعة (الزهري) التي كان فيها^٩.

ومن (بدا) يتجه الطريق الى (السرحتين) ، ثم الى (البيضاء) ، ثم الى (وادي القرى) ، ثم الى (الرحبية) ، ثم الى (ذي المروة) ، ثم الى (المر) ، ثم الى (السويداء) ، ثم الى (ذي خشب) ، ثم الى المدينة ،

-
- ١ تاج العروس (١٢٤/٣ وما بعدها) ، (حجر) .
 - ٢ بلاد العرب (٣٩٧ وما بعدها) .
 - ٣ بلاد العرب (٤١٤،٤١٣،٣٩٦،٣٩٥) .
 - ٤ تاج العروس (٣٨٥/٢) ، (سود) .
 - ٥ بلاد العرب (٤١٤،٤٠٦) .
 - ٦ تاج العروس (٢٣٥/١) ، (خشب) .
 - ٧ المسالك (١٥٠) ، قدامة (١٩١) .
 - ٨ الطبري (١٠٠/٢ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٤٤٥/١ وما بعدها) .
 - ٩ تاج العروس (٣٢٢/١) ، (شغب) ، (٣٣/١٠) ، (بدى) .

ومنها الى مكة . وقد كان حجاج مصر يسلكون هذا الطريق، إذا جاؤوا من البر^١.

وهناك طريق ساحلي سلّكه حجاج مصر أيضاً ، يبدأ بشرف البعل ، ثم الى (الصلا) ، ثم الى (النيك)^٢ ، ثم الى (ظبة) ، ثم الى (عونيد) ، ثم الى (الوجه) ، ثم الى (منحوس) ، ثم الى (الجرة) ، ثم الى (الأحساء) ثم الى (ينبع) ، ثم الى (مستولان) ، ثم الى (الجار) ، ثم الى المدينة^٣ . و (الجار) على ساحل البحر ، وهو فرضة المدينة ، ترفأ اليه السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن ، وبجذائه جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار^٤ . و (ينبع) حصن له عيون فوارة ، ذكر بعضهم أنها مائة وسبعون عيناً، ونخيل وزروع ، بطريق حاج مصر عن يمين الجاثي من المدينة الى (وادي الصفراء) ، وقد جفت عيونها فيما بعد ، كما ذكر من زارها من الباحثين^٥ .

وأما طريق المدينة المؤدي الى مكة ، فيمر بـ (الشجرة) ، وهو ميقات أهل المدينة ، ثم الى (ملل) ، ثم الى (السائلة) . وقد ذكر أنها أول مرحلة لأهل المدينة ، إذا أرادوا مكة ، وأنها بين (ملل) والروحاء^٦ . ثم الى (الرويثة) ثم الى (السقيا) ، فيها نهر جار ، بين المدينة ووادي الصفراء^٧ . ثم الى (الأبواء) ، وهي قرية من أعمال (الفرع) بين المدينة والجحفة^٨ ، ثم الى (الجحفة) ، وهي من تهامة ، وفيها آبار ، وهي ميقات أهل الشام ، وكانت تسمى (مهبة) ، فنزل بها (بنو عييل) ، وهم اخوة عاد وكان أخرجهم العماليق من يثرب فجاءهم سيل جحاف فاجتطفهم فسميت الجحفة . وهكذا فسر^٩

١ المسالك (١٤٩ وما بعدها) ، قدامة (١٩٠) .

٢ (موضع بين ضجوة ومضيق جبة من منازل حاج مصر) ، تاج العروس (١٨٦/٧) ، (بنك) .

٣ قدامة (١٩١) .

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) .

٥ تاج العروس (٥١٧/٥) ، (نبع) .

٦ تاج العروس (٣٨٥/٧ وما بعدها) ، (ملل) .

٧ تاج العروس (١٨٠/١٠) ، (سقى) .

٨ تاج العروس (٦/١٠) ، (أبي) .

(ابن الكلبي) ، سبب تسمية هذه القرية القريبة من البحر بهذه التسمية^١ .

والأبواء من المنازل التي كان يطرقها المسافرون إلى بلاد الشام ، فهي على طريق التجارة القديم . وللسول غزوة عرفت بغزوة الأبواء وبغزوة ودّان، وصل فيها إلى موضع (ودّان) ، وكان يريد اعتراض عير لقريش ، مرت بهذا المكان، وهي أول غزوة غزاها الرسول . وقد وادع فيها (بنو ضمرة بن بكر بن عبد مناة) على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا أحداً عليه^٢ ، مما يدل على ان هذا الموضع كان لبني ضمرة في ذلك العهد . وورد انه كان لبني ضمرة ولغفار وكنانة^٣ .

وودّان قرب الأبواء والجحفة من نواحي (الفرع) ، بينها وبين (هرشي) ستة أميال ، وبينها وبين (الأبواء) نحو من ثمانية أميال ، وكانت قرية سكنها (الصعب بن جثامة) الليثي من أصحاب الرسول ، فنسب اليها^٤ .

و (هرشي) ثنية قرب (الجحفة) في طريق مكة يرى منها البحر ، ولها طريقان فكل من سلكها كان مصيباً ، وهي على طريق الشام وطريق المدينة إلى مكة في أرض مستوية ، وأسفل منها (ودّان) على ميلين مما يلي المغرب . ويتصل بها من الغرب خبت رمل في وسط هذا الخبت جبل أسود شديد السواد صغير يقال له طفيل^٥ .

ومن الجحفة يتجه المسافر إلى (قديد)^٦ ، ثم إلى (عسفان) ، ثم إلى بطن مر ، ثم إلى مكة^٧ . و (بطن مر) ، قرية كبيرة ، وعلى أربعة أميال منها قبر (ميمونة) زوجة النبي ، وعلى مسافة منها مسجد عائشة ، ومنها يحرم أهل مكة ، وهو حد الحرم^٨ .

والجحفة من منازل طريق تجارة مكة إلى الشام ، ولذلك صارت هي والمواضع التي تقع على هذا الطريق من الأهداف التي قصدها المسلمون للتحرش بقوافل

- ١ تاج العروس (٥٣/٦) ، (جحف) .
- ٢ امتاع الاسماع (٥٣/١) ، الطبري (٤٠٣/٢) .
- ٣ تاج العروس (٥٣٠/٢) ، (ودد) .
- ٤ تاج العروس (٥٣٠/٢) ، (ودد) .
- ٥ تاج العروس (٣٦٧/٤) ، (هرش) .
- ٦ تاج العروس (٤٦١/٢) ، (قدد) .
- ٧ المسالك (١٣١) .
- ٨ قدامة (١٨٧) .

قريش . ومن نواحي الجحفة (ثنية المرة) ، ومنها سار (عبيدة بن الحارث ابن المطلب) على غير لقريش بحرسها مائتان من المشركين بقيادة (أبو سفیان) ، أو غيره وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، فالتقى بها على ماء يقال له (أحياء) من بطن (رابع) على عشرة أميال من الجحفة ، وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق^١ .

و (رابع) وادي عند الجحفة قرب البحر بسين (البزواء) و (الجحفة) دون (عزور) ، وقرية لا تزال معروفة . بينها وبين (بدر) خمس مراحل . الأول (قاع البزواء) ، ثم عقبة وادي السويق ، ثم آخر ودان ، ثم شقراء ، ثم رابع^٢ . وهي اليوم قرية ، مياهها عذبة ذات مزارع ونخيل .

وأرسل الرسول سرية أخرى إلى (الحرار) للتعرض لعير قريش التي كانت تسلك الجحفة ، فلما وصلت (الحرار) من الجحفة قريباً من (خم) ، وجدت عير قريش قد سبقتها ، ونجت^٣ . و (خم) غدير دون الجحفة وقيل بالجحفة^٤ .

وعلى مسيرة يوم من (ينبع) ، يقع جبل (رضوى) الذي يبعد سبع مراحل عن المدينة^٥ ، ومن نواحي هذا الجبل ناحية (بواط) ، واليها خرج الرسول غازياً معترضاً عير قريش ، التي كانت مارة بهذا المكان . وكانت قافلة كبيرة تتألف من ألفين وخمسمائة بعير ، بحرسها مائة رجل من قريش ، فيها (أمية بن خلف) ، وقد أفلتت القافلة ونجت ، دون أن يقع أي قتال^٦ .

وبطن ينبع موضع يقال له : (ذو العشرة) ، (ذات العشرة) ، اليه كانت غزوة (العشرة) (غزوة ذات العشرة) ، حين بلغ الرسول خبر خروج عير لقريش إلى بلاد الشام ، وقد جمعت قريش أموالها في تلك العير ، ولكن القافلة نجت ، فوصلت سالمة إلى بلاد الشام ، وهي التي خرج الرسول في طلبها

-
- ١ الطبري (٤٠٢/٢) ، امتاع الاسماع (٥٢/١) .
 - ٢ تاج العروس (١٠/٦) ، (ربيع) .
 - ٣ الطبري (٤٠٣/٢) ، امتاع الاسماع (٥٣/١) ، تاج العروس (١١٣/٣) ، (خور) .
 - ٤ تاج العروس (٢٨٣/٨) ، (خم) .
 - ٥ تاج العروس (١٥١/١٠) ، (رضو) ، عرام (٣٩٦) .
 - ٦ الطبري (٤٠٧،٤٠٥/٢) ، امتاع الاسماع (٥٤/١) ، تاج العروس (١١٢/٥) ، (باط) .

لما عادت ، وكانت وقعة بدر . فرجع الرسول الى المدينة ، بعد أن صالح (بني مدلج) وحلفاءهم (بني ضمرة)^١ .

ولما هاجر الرسول من مكة الى المدينة سلك به الدليل طريقاً لا تسلكه القوافل ، أي طريقاً لا يسلكه المسافرون عادة الى المدينة ، ليتجنب من ملاحقة قريش له . سلك به وبصاحبه (أبي بكر) أسفل مكة ، ثم مضى بهما حتى حاذى بهما الساحل ، وعارض الطريق أسفل من (عسفان) ، ثم سلك بهما على أسفل (أمج) ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعدما جاوز (قديداً) ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما (الحرّار) ، ثم سلك بهما (ثنية المرة) (ثنية المرأة) ، ثم أجاز بهما (مدلجة لقف) (لقف) ، ثم استبطن بهما (مدلجة مجاج) (مجاج) ، طريق يقال له (المدلجة) بين طريق (عمق) وطريق الروحاء^٢ . ثم سلك مرجح من مجاج ، ثم بطن (مرجح ذي العضوين) ثم (بطن ذي كشد) (بطن ذات كشد) (ذي كشد) ، ثم أخذ بهما على (الجداجد) ، ثم على (الأجرد) ، ثم سلك بهما (ذا سلم)^٣ (ذا سمر)^٤ من بطن أعداء (مدلجة تعهن) ، ثم على (العبايد) ، ويقال (العبايب) ويقال (الغيثانة)^٥ (العتبانة)^٦ ، ثم أجاز بهما (الفاجعة) ، ويقال (القاحسة)^٧ . ثم هبط بهما (العرج) ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنية (العائر)^٨ (الغابر)^٩ (الأعيار)^{١٠} ، ويقال (ثنية الغائر)^{١١} ، عن يمين

- ١ الطبري (٤٠٨/٢ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (٥٤/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٠٣/٣) ، (عشر) ، (ويقال فيه العشير بغير هاء أيضا) .
- ٢ الطبري (٣٧٧/٢) ، « لقف » ، نهاية الارب (٣٣٨/١٦) .
- ٣ سيرة ابن هشام (٩/١) ، (حاشية على الروض) .
- ٤ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .
- ٥ ابن هشام (٩/١) ، (حاشية على الروض) .
- ٦ المسالك (١٢٩ وما بعدها) .
- ٧ ابن هشام (٩/١) ، (حاشية على الروض) ، المسالك (١٢٩) .
- ٨ ابن هشام (١٠/١) ، (حاشية على الروض) .
- ٩ الطبري (٣٧٧/٢) .
- ١٠ المسالك (١٢٩) .
- ١١ ابن هشام (١٠/١) ، (حاشية على الروض) .

(ركوبة) ، ثم هبط (بطن رثم)^١ (بطن ريم)^٢ ، ثم قدم بهما (قباء) ،
ثم (يثرب)^٣ :

ولما سمع الرسول بقدوم (أبو سفيان) مقبلاً من الشام في غير لقريش عظيمة
فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، خرج لملاقاتها في موضع (بدر) . وكان
بدر طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل الى الشام^٤ . فخرج من
المدينة على نقب المدينة ، فنزل بالبقع ، ويقال بئر أبي عتبة ، وهي على ميل
من المدينة ، ثم اتجه نحو (بيوت السقيا) ، فضرب عسكره هناك . ثم أمر
أصحابه ان يستقوا من (بئر السقيا) ، وصلى عند بيوت السقيا ، وسلك من
السقيا بطن العقيق حتى نزل تحت شجرة بالبطحاء ، ثم سلك (ذي الخليفة) ،
ثم على (أولات الجيش) (ذات الجيش) ، ثم على (تريان) ، ثم على
(ملل) ، ثم على (غميس الحمام) من (مريين) ، ثم على صخيرات الياهم ،
ثم على (السائلة) ، ثم على (فجج الروحاء) ، ثم على (شنوكة) ، وهي
الطريق المعتدلة ، ثم على (عرق الظبية) (الظبية) ، ثم على (سجسج) ،
وهي بئر الروحاء ، حتى اذا كان بالمنصرف ، ترك طريق مكة بيسار وسلك
ذات اليمين على (النازية) يريد (بدرأ) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع
وادياً يقال له (وحقان) بين (النازية) وبين مضيق الصفراء ثم على المضيق ثم
انصب منه الى (الصفراء) ، وهي قرية بين جبلين ، ثم سلك الى وادٍ يقال
له (ذفران) ، ثم سلك على ثنايا يقال لها (الأصافر) ، ثم انحط منها الى
بلد يقال له (الدبّة) (الدية) ، وترك (الحنان) بيمين وهو كثيب عظيم
كالجبل ، ثم نزل بدرأ^٥ .

- ١ الطبري (٣٧٧/٢) ، المسالك (١٢٩ وما بعدها) .
- ٢ ابن هشام (١٠/١) ، حاشية على الروض .
- ٣ ابن هشام (١٠/١) ، حاشية على الروض ، الطبري (٣٧٧/٢) ، المسالك (١٢٩
وما بعدها) ، نهاية الارب (٣٣٨/١٦ وما بعدها) .
- ٤ الطبري (٤٢٢/٢) ، ذكر وقعة بدر الكبرى .
- ٥ ابن هشام (٦٣/٢ وما بعدها) ، حاشية على الروض ، الطبري (٤٣٣/٢ وما
بعدها) .

و (السقيا) ، موضع به ماء ، بين المدينة ووادي الصفراء^١ ، يعرف اليوم ب (أم البرك)^٢ .

و (شنوكة) ، جبل جمع على (شنائك) في شعسر لكثير ، لأنه ثلاث أجبل صغار منفردات من الجبال ، يمر منها الطريق الى بدر والصفراء وإلى النازية ورحقان ، ويدع المنصرف الى يساره^٣ . وتقع بين (المنصرف) وبين الروحاء . ولا تزال معروفة^٤ .

و (المنصرف) ، موضع^٥ يقال له (المسجد) في الوقت الحاضر ، وهو قرية كبيرة^٥ . وتقع على طريق المدينة المتجه الى (الصفراء) فالساحل والذي يتصل بجدة . وهو غير بعيد عن (النازية) . و (النازية) عين ثرة على طريق الآخذ من مكة الى المدينة قرب الصفراء ، وهي الى المدينة أقرب^٦ .

و (بدر) أسفل وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، يقال إنه هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً ، وبينه وبين (الجار) ، وهو على ساحل البحر ليلة . وبه بئر حفرها رجل من غفار ، اسمه (بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة) وقيل (بدر بن قريش بن يخلد بن النضر بن كنانة) ، وقيل بدر رجل من (بني ضمرة) سكن ذلك الموضع فنسب اليه ، ثم غلب اسمه عليه ، وقيل بدر رجل من جهينة كان يملك البئر فسميت به . ولهم تفاسير أخرى من هذا القبيل في تعليل سبب تسمية بدر بدراً^٧ . وبدر قرية كبيرة في الوقت الحاضر أسفل (وادي الصفراء) ، يتجه منها طريق الى (ينبع) ، ومن ينبع الى مكة^٨ .

وكان (أبو سفيان) لما بلغ (الزرقاء) من بلاد الشام ، وهو منحدر إلى مكة ، أخبره أحدهم ان محمداً قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم ، وانه تركه

-
- ١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
 - ٢ العرب (١٩٦٨) ، (> ١١ ص ٩٧٧) .
 - ٣ تاج العروس (٧/١٥١) ، (شنوكة) ، العرب (١٩٦٨) ، (> ١١ ص ٩٧٧) .
 - ٤ العرب (١٩٦٨) ، (> ١١ ص ٩٧٧) .
 - ٥ العرب (> ١١) ، (السنة الثانية) ، (١٩٦٨) ، (ص ٦٢) .
 - ٦ تاج العروس (١٠/٣٦٥) ، (نزا) .
 - ٧ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .
 - ٨ العرب (١٩٦٨) ، (> ١١ ص ٩٧٨) .

مقيماً ينتظر رجعتهم ، فخرج خائفاً من الرصد ، فلما بلغ الساحل، أرسل رسولا^١ استأجره بعشرين مثقالاً ، وأمره أن يخبر قريشاً ان محمداً قد عرض لغيرهم ، فذهب اليهم وأخبرهم ، فتجهزوا وأسرعوا لانتفاذ قافلة (أبي سفيان) ، الذي خاف خوفاً شديداً حين دنا من المدينة ، فلما أصبح (أبو سفيان) يبدر ، ضرب وجهه عبره فساحل بها ، وترك بديراً يساراً وانطلق سريعاً ، حتى بلغ مكة . وكان أهل مكة قد خرجوا من مكة على طريق (مرت الظهران) ، ثم (عسفان) ثم (قديد) ، ثم إلى (مناة) من البحر ، ثم (الجحفة) ، ثم (الأبواء) ، ثم (بدر)^١ ، حيث التقوا برسول الله ، ف وقعت معركة بدر .

وكانت قريش تأخذ الساحل : ساحل البحر حين تأخذ إلى الشام^٢ . وهو طريقها إلى متجراها هناك ، وقد عرف بالمعركة ، وفيه سلكت غير قريش حين كانت وقعة (بدر) . ومن هذا قول (عمر) لسلمان أين تأخذ إذا صدرت أعلى المعركة أم على المدينة^٣ . ويقع طريق المعركة بين (عزور) وبين (رضوى) تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة وإلى المدينة . وهو بين الجبلين^٤ .

ومن مواضع هذا الطريق : العيص ، وهو عرض من أعراض المدينة ، وموضع على مقربة من ساحل البحر^٥ . ومن (ذي المروة)^٦ . وهو موضع على طريق تجارة قريش مع الشام ، وبه كان يمر طريق الشام ومصر إلى المدينة ومكة^٧ . وإلى سيف البحر ناحية العيص أرسل الرسول (حمزة) ، حين بلغه ان (أبا جهل) قد جاء بعير لقريش من الشام يريد مكة في ثلاثمائة راکب^٨ . فقد كان هذا الموضع من الساحل مسلك قوافل قريش . ولا يزال اسم العيص معروفاً . وفي مقابله (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر في القديم^٩ .

- ١ امتاع الاسماع (١/٦٦ وما بعدها) ، الطبري (٢/٤٣٧ وما بعدها) .
- ٢ الطبري (٢/٦٣٩) .
- ٣ تاج العروس (٧/١١) ، (عرق) .
- ٤ عرام (٣٩٦) .
- ٥ تاج العروس (٤/٤١١) ، (عيص) .
- ٦ الطبري (٢/٦٣٩) .
- ٧ بلاد العرب (٤١٤، ٤١٣، ٣٩٦، ٣٩٥) .
- ٨ امتاع الاسماع (١/٥١ وما بعدها) ، ابن هشام (٢/٥٦) ، (حاشية على الروض)
- ٩ تاج العروس (٣/١٦١) ، (حور) .

ولم يذكر علماء السير والأخبار أسماء المراحل التي قطعها قريش عند زحفها على (أحد) بتفصيل. وكل ما ذكروه أن قريشاً جاؤوا فتنزلوا (عينين) بجبل بطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة^١. وذكر أنه الجبل الذي أقام عليه الرماة يوم أحد، ولذلك قيل ليوم أحد يوم عينين^٢. وكانوا قد قدموا من (ذي طوى) على طريق (الأبواء) حيث همت وهي هناك أن تنبش قبر (آمنة) أم النبي. وسلكوا (العقيق) حتى نزلوا ظاهر المدينة^٣. ثم التقسوا بالمسلمين عند أحد.

ويظهر من هذه الأسماء، أن قريشاً سلكت في سيرها على المدينة الطريق المألوف الذي يمر بالأبواء. و (ذو طوى) موضع قرب مكة عرف بالزاهر، به بشر حفرها (عبد شمس بن عبد مناف)^٤.

ولما سار الرسول للعمرة، سلك طريق (الفرع) (الفروع) نحو (مر الظهران)، ثم (بطن يأجج)، وحبس الهدي ب (ذي طوى) ودخل مكة من الثنية^٥. و (مر الظهران)، واد به عيون ومياه، غير بعيد عن مكة، وبه (مجنة)، ويعرف الآن بوادي فاطمة^٦.

وخرج الرسول من المدينة، فسلك حرة بني حارثة، ثم (الشوط) بين المدينة وأحد، ثم (الشيخين) حتى نزل الشعب من (أحد) في عدوة الوادي إلى الجبل^٧. ولما عاد الرسول إلى المدينة، بلغه أن (أبا سفيان) كان بموضع (ملل)، يقرر الرجوع على المسلمين، وأن رجلاً أخبره أنه رأى (أبا سفيان) بالروحاء، وهو مجمع مع قريش على السير على المدينة. وسأل الرسول عن موضع قريش فقيل له: إنه بالسيالة، فخرج من المدينة حتى وصل (حراء الأسد) فبلغه رجوع قريش إلى مكة، وذهب شرها فرجع إلى يثرب^٨.

-
- ١ الطبري (٥٠٢/٢)، (غزوة أحد)
 - ٢ تاج العروس (٢٩١/٩)، (عين)
 - ٣ امتاع الاسماع (١١٥/١) وما بعدها
 - ٤ تاج العروس (٢٢٩/١٠)، (طوى)
 - ٥ امتاع الاسماع (٣٣٧/١) وما بعدها، الطبري (٢٣/٣) وما بعدها
 - ٦ بلاد العرب (٢٢، ٢٤)
 - ٧ الطبري (٥٠٤/٢) وما بعدها
 - ٨ الطبري (٥٣٤/٢)، امتاع الاسماع (١٦٧/١) وما بعدها

ولما عاد (عمرو بن أمية الضمري) من مكة ، وكان قد وجهه الرسول لقتل أبي سفيان ، خرج إلى (النعيم) ، ثم أخذ طريق (الصفراء) ، ثم (غليل ضجنان) ، ثم أخذ المحجة ، ثم (النقيع) حتى وصل المدينة ^١ . و (النعيم) على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة ، وهو أقرب أطراف الحل إلى البيت ، على يمينه جبل نعيم ، وعلى يساره جبل ناعم ، والوادي اسمه (نعمان) ^٢ . و (الصفراء) واد بين مكة والمدينة ، وراء بدر مما يلي المدينة ^٣ . و (ضجنان) غليل يظهر من وصف خبر رجوع (عمرو بن أمية) إلى المدينة ، انه بعد الصفراء ، ذكر انه موضع أو جبل بين مكة والمدينة ، ويظهر ان العلماء كانوا قد اختلفوا في تعيين مكانه ^٤ . و (النقيع) هو (نقيع الخضات) الذي حماه (عمر) لنعم الفيء وخيل المجاهدين فلا يرعاها غيرها . وورد في الحديث أول جمعة جمعت في الاسلام بالمدينة في نقيع الخضات ^٥ . ويظهر من شعر لمعبد بن أبي معبد الخزاعي ، ان ماء (ضجنان) بعد ماء (قديد) ^٦ .

ولما سار الرسول على (بني لحيان) ، خرج من المدينة ، فسلك على (غراب) جبل بناحية المدينة على طريقه الى الشام ، ثم على (مخيض) ، ثم على (البراء) ثم صفق ذات اليسار ، ثم على (بين) ، ثم على (صحيرات السيام) ، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ، حتى نزل على (غُران) ، وهي منازل بني لحيان . و (غران) واد بين (أمج) و (عسفان) الى بلد يقال له (ساية) . ثم سار الرسول حتى نزل (عسفان) ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُرَاع (الغميم) ، ثم (كرا) ، ثم قفل الرسول راجعاً الى المدينة ^٧ .

-
- ١ الطبري (٥٤٣/٢ وما بعدها) .
 - ٢ تاج العروس (٨٤/٨) ، (نعم) .
 - ٣ تاج العروس (٣٣٥/٣ وما بعدها) ، (صفر) .
 - ٤ تاج العروس (٢٦٣/٩) ، (ضجن) .
 - ٥ تاج العروس (٥٣٠/٥) ، (تقع) .
 - ٦ تهوى على دين أبيها الاتلد قد جعلت ماء قديد موعدي
وماء منجنان لها ضحي الغد
 - ٧ الطبري (٥٦٠/٢) .
 - ٧ الطبري (٥٩٥/٢) .

ويظهر من هذا الوصف أن الرسول أراد اعماء خبر غزوته عن (بني لحيان) ،
فسلك طريق الشام ، ثم غير اتجاهه ، فتوجه نحو (بين) وصخيرات السيام ،
فبلغ الجادة ، ثم أسرع حتى بلغ (غران) ، منازل (بني لحيان) بين (أمج)
و (عسفان) . فتكون منازل (بني لحيان) في هذه المنطقة .

ولما سار الرسول على مكة عام الفتح ، سلك طريق (العرج) ، و (العرج)
جبل بين مكة والمدينة يمضي الى الشام^١ ، وواد يقع بين أم البرك ، الموضع
المعروف بالسقيا قديماً ، وبين الجي^٢ ، الوادي الذي يقطعه المسافرون مسع طريق
السيارات القديم الى (المسجد)^٣ ، وذكر أنه على أربعة أميال من المدينة^٤ ،
وكان الرسول قد نزل (السقيا) ، وهي (أم البرك) الآن^٥ ، وذكر أنه
بين المدينة والصفراء ، وفي الحديث أنه كان يستعذب من بيوت السقيا^٥ .
و (الصفراء) وراء (بدر) مما يلي المدينة^٦ . كما مرّ بثنية العقاب^٧ وبالآبواء ،
وبذي الحليفة ، وبالجحفة ، وبالكديد ، وهو موضع على اثنين وأربعين ميلاً^٨
من مكة بين (عسفان) و (رابع) ، وقيل بين عسفان وقديد بينه وبين مكة
ثلاث مراحل ، أو بين ثنية غزال وأمج^٨ . وب (قديسد)^٩ ، وبمر
الظهران^{١٠} .

ولما حج الرسول حجة الوداع ، سار من المدينة، فصلى الظهر ب(ذي الحليفة)،
ثم استوى بالبيداء ، ومرّ إلى (القاحة) ، وهو موضع على ثلاث مراحل من

-
- ١ المسالك (١٧٢) .
 - ٢ بلاد العرب (٣٣٨،٢٩) .
 - ٣ تاج العروس (٧٢/٢) ، (عرج) .
 - ٤ بلاد العرب (٣٩٦،٣٣٠،٢٩) .
 - ٥ تاج العروس (١٨٠/١٠) ، (سقى) .
 - ٦ تاج العروس (٣٣٥/٣) ، (صفر) .
 - ٧ الطبري (٥٢/٣) .
 - ٨ تاج العروس (٤٨٣/٢) ، (كد) .
 - ٩ تاج العروس (٤٦١/٢) ، (قد) .
 - ١٠ امتاع الاسماع (٣٥٧/١) وما بعدها) ، الطبري (٤٢/٣) وما بعدها) ، (ذكر
الخبر عن فتح مكة) .

المدينة وعلى ميل من (السقيا) ، وهو بين (الجحفة) و (قديد)^١ . ثم سار إلى (ملل) (يللم)^٢ ، وهو موضع به آبار ، على مسافة اثني عشر ميلاً من (الشجرة)^٣ ، أو سبعة عشر ميلاً من (المدينة) ، وقيل عشرين ميلاً^٤ ، ثم شرف السيادة ، وهو موضع بين (ملل) و (الروحاء) في طريق مكة^٥ ، ثم (عرق الظبية) بين (الروحاء) و (السيادة) ، وهو دون (الروحاء) ، ثم نزل (الروحاء) ، ثم راح من (الروحاء) فصلى العصر بالمنصرف^٦ . و (المنصرف) على أربعة بُرْد من (بدر) مما يلي (مكة)^٧ ، وصلى المغرب بالمتعشى وتعشى به ، وصلى الصبح بالأثاية . و (أثاية) بطريق (الجحفة) إلى مكة ، فيه مسجد نبوي ، قيل بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخاً ، أو بئر دون العرج^٨ . وأصبح بالعرج يوم الثلاثاء^٩ .

ونزل (السقيا) يوم الأربعاء ، وأصبح بالأبواء ، ثم راح إلى (الجحفة) ، ثم راح منها إلى (قديد) ، ثم (عسفان) ، ثم (الغميم) . ثم (مر الظهران) ، ثم نزل موضع (سرف) . ولما انتهى إلى (الثنيتين) بات بينها ، بين (كداء) و (كدى) ، ودخل مكة من (كداء)^{١٠} .

وأما الطريق من مكة إلى الطائف ، فمن مكة إلى بئر ابن المرتفع ، ثم إلى قرن المنازل ، وهي ميقات أهل اليمن والطائف ، ثم إلى الطائف ، ومن أراد من مكة إلى الطائف على طريق العقبة يأتي عرفات ، ثم بطن نعان ، ثم يصعد عقبة حراء ، ثم يشرف على الطائف ويهبط ويصعد عقبة خفيفة ، تسمى (تنعم)

- ١ تاج العروس (٢ / ٢١٠) ، (قاح) ، امتاع الاسماع (١ / ٥١٢) ، (حاشية رقم ٣) .
- ٢ « يللم » هكذا في امتاع الاسماع (١ / ٥١٣) ، وهو خطأ ، ف « يللم » ميقات أهل اليمن ، والصواب « ملل » .
- ٣ المسالك (١٣٠ ، ١٨٧) .
- ٤ تاج العروس (٨ / ١٢٠) ، (ملل) .
- ٥ تاج العروس (٧ / ٣٨٥ وما بعدها) ، (سال) ، (٦ / ١٥٢) ، (شرف) .
- ٦ امتاع الاسماع (١ / ٥١٣) .
- ٧ تاج العروس (٦ / ١٦٥) ، (صرف) .
- ٨ تاج العروس (١٠ / ١٠) ، (أنى) .
- ٩ امتاع الاسماع (١ / ٥١٣) .
- ١٠ امتاع الاسماع (١ / ٥١٦ وما بعدها) .

الطائف) ، ثم يدخل الطائف^١ .

وبين مكة والطائف ، موضع يقال له (بطن نخلة) (نخلة)^٢ ، اليه أرسل الرسول (عبدالله بن جحش) على رأس سرية ، ليرصد بها غير قريش . فسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له (بحران) سلك طريقه نحو (نخلة) حتى بلغها ، فمرت بهم غير لقريش تحمل زيبياً وأدماً وتجارة من تجارة قريش وخرماً ، فاستولت على العير وأخذت أسيرين ممن كان يحرس العير ، ورجعت الى المدينة . وذكر أن (عبدالله بن جحش) كان يحمل كتاباً من الرسول ، يعين له الهدف ، أمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير ليلتين ، فلما سار وصار ببطن (ملل) أو عند (بشر ابن ضميرة) فتح الكتاب ، فإذا فيه أن يذهب الى (بطن نخلة) ليتحسس أخبار قريش^٣ .

وقد سلك أهل مكة في ذهابهم إلى اليمن وفي إيابهم منها جملة طرق ، منها ما تمرّ بالساحل ، ومنها ما تمرّ شرقاً عنه . ومن هذه الطريق : طريق يبدأ بمكة ، ثم إلى (قرن المنازل) ، قريسة كبيرة ، وهو ميقات أهل اليمن والطائف ، واسم وادئ^٤ . ثم إلى (الفتق)^٥ ، وهو قرية ، ثم إلى (صفن) (صفر) (صقر) ، ثم إلى (تربة) ، ثم إلى (كرى) (كرا) (كدا) (كدى) ، ثم إلى (رنية) ، ثم إلى (تباله) ، ويرد اسمها في تأريخ (الحجاج) ، فقد استعمل عبد الملك (الحجاج) عليها ، فلما أتاها استحققها ولم يدخلها ، فقيل : « أهون من تباله على الحجاج »^٦ . ثم إلى (بيضة بعبان) ، ثم إلى (جسداء) ، ثم إلى (بنات حرب) (بنات حرم) ، ثم إلى (بيميم) ، وهو منزل في صحراء فيه بئر واحدة عذبة ، وليس به أهل ، وحوله أعراب من خثعم ، وبينه وبين

١ المسالك (١٣٤) ، قدامة (١٨٧ وما بعدها) .

٢ وقد ذكر في شعر لامرئ القيس :

فريقان منهم سالك بطن نخلة واخر منهم جازع نجد كبكب

تاج العروس (١٣١/٨) ، (نخل) .

٣ الطبري (٤١٠/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (٥٩/٢) ، (حاشية على الروض) ،

امتاع الاسماع (٥٥/١ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٣٠٦/٩) ، (قرن) ، صبح الاعشى (٤٣/٥) .

٥ تاج العروس (٤١/٧) ، (فتق) .

٦ تاج العروس (٢٣٩/٧) ، (تبل) .

(جرش) نحو أربعة عشر ميلاً ، ومنه إلى (كتنة) (كتبة) ، ثم إلى (الثجة) ، ثم (سرور راح) (سرور راح) ، ثم إلى (المهجرة) ، وفيما بين (سرور راح) والمهجرة طلحة الملك ، شجرة عظيمة تشبه الغرب ، غير أنها أعظم منه ، وهي الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن^١ . وكان النبي حجز بها بين اليمن ومكة^٢ .

ومن (المهجرة) يتجه الطريق إلى (عرقة) ، وهو أول عمل اليمن ، ثم إلى (صعلة) ، وهي مدينة يدبغ فيها الأدم ، واشتهرت بالنعل^٣ . ولصعلة مغاليف ، وقرى كثيرة . وقد ذكر (قدامة) أن أكثر تجار (صعلة) من أهل البصرة ، وطريق منها للبصريين يرجع إلى (ركة) (الركبية) . مما يدل على أن التجارة كانت متينة بين أهل اليمن وبين أهل البصرة في الإسلام . ومن يدري ، فلعل هذه التجارة تعود إلى ما قبل تأسيس البصرة ، أي إلى ما قبل الإسلام .

ومن صعلة ، يتجه الطريق إلى (الأعمشية) ، ومن الأعمشية إلى خيوان ، قرية جبلية الماء من السماء ، وفيها كروم ، ومن خيوان إلى (اثافت) ، وهي قرية عظيمة وفيها زروع وكروم ، وماء الشرب من بركة^٤ . ثم إلى صنعاء^٥ . والطريق المذكور، هو الطريق الذي عليه الأميال ، وهو طريق العوامل والعمال^٦ . فهو الطريق المسالك الذي يمر به البريد .

وذكر العلماء أن أهل (صنعاء) كانوا إذا أرادوا مكة قصدوا (الرحابة) ، ثم إلى (رافدة) ، ثم إلى (خيوان) ، ثم إلى (صعلة) ، ثم إلى (النضح) ، ثم (القصبية) ، ثم (الثجة) ثم كتبة ، (كتنة) ، ثم بنات حرم (بنات حرب) ثم جسداء ، ثم بيشة ، ثم تبالة ، ثم رنية ، ثم الزعراء ، ثم صفر ، ثم الفتق ، ثم بستان ابن عامر ، ثم مكة^٧ .

-
- ١ المسالك (١٣٤ وما بعدها) .
 - ٢ قدامة (١٨٩) .
 - ٣ المسالك (١٣٥) ، تاج العروس (٣٩٨/٢) .
 - ٤ المسالك (١٣٦) ، قدامة (١٨٩) ، صبح الاعشى (٤٣/٥ وما بعدها) .
 - ٥ المسالك (١٣٦) .
 - ٦ قدامة (١٩٠) .
 - ٧ قدامة (١٩٢) ، الصفة (١٨٦) .

و (تربة) بناحية (العلاء) ، على أربع ليالٍ من (مكة) طريق صنعاء ونجران . واليها أرسل الرسول (عمر بن الخطاب) على رأس سرية في شعبان سنة سبع . وأصحابها من (عجز هوازن)^١ .

وذكر (الهمداني) محجة (صنعاء) إلى مكة على هذا النحو : ريدة ، ومنها إلى (أثافت) ، ثم خيوان ، ثم العمشية ، ثم صعدة ، ثم إلى (العرقة) ، في المحجة اليسرى القديمة ، ثم بقعة في المحجة اليمنى المحدثه ، ثم إلى مهجرة ، ثم إلى أرنيب ، ثم سروم الفيض ، ثم إلى الثجة ، ثم إلى كتنة ، ثم إلى الهجيرة ، ثم إلى يَبَسْم ، ثم إلى بنات حرب ، ثم إلى الجسداء ، ثم إلى بيشة بعطان ، ثم تباله ، ومنها إلى كرى ، ثم تربة ، ثم إلى الصنن ، ثم الفتق ، ثم إلى رأس المناقب ، ثم قرن المنازل ، ثم رمة ، ثم الزيمة ، ثم مكة^٢ .

وذكر (الهمداني) ان هنالك طريقاً يمر بتهامه ، هو محجة صنعاء إلى مكة . فقال : « من صنعاء صليت من البون ، ثم المربرد ، ثم أسفل العرقة وأخرف ، ثم الصرجة ، ثم رأس الشقيقة ، ثم حرص ، ثم الخصوف من بلد حكم ثم الجوينية من قنونا وتسمى القناة ، ثم دوقة وهي للعبديين من بقايا جرهم ، ثم إلى السّرين ، ثم المعجر ، ثم الخيال ، ثم إلى يللم ثم ملكان ثم مكة . هذه طريق الساحل » . « والمحجة القديمة ترتفع إلى حلي العليا وتسمى حليّة ، واليها ينسب أسود حلية ... ثم إلى عشم ، ثم على الليث ومركوب إلى يللم »^٣ .

وأما محجة (عدن) ، فمن عدن إلى المخنق ، ومن المخنق الحجّار ، ومن الحجّار المسيل ، ومن المسيل عبّرة ، ومن عبّرة إلى كهالة ، بشر ذي وزن ، ومن كهالة الماجلية ، ثم المقعدية ، ثم إلى زبيد ، ثم إلى المعقر ، ثم الكدراء ، ثم المهجم ، وبالمهجم تفضى محجة صنعاء على وادي سهام ، ثم بلحة من وادي مور ، ثم الحسارة ، ثم العباية ، ثم الشرجة ، ثم العُرش ، ثم عثر^٤ .

وذكر (ابن خرداذبه) طريقاً ساحلياً ربط (عمان) بمكة ، وهو الطريق الذي سلك في الإسلام . وقد كان جاهلياً ولا شك ، لأن الجاهليين والروم وغيرهم كانوا يساحلون العربية الغربية والجنوبية والشرقية ، ويهبطون بعض المواضع التي

١ امتاع الاسماع (١/٣٣٣) ، تاج العروس (١/١٥٩) ، (توب) .

٢ الصفة (١٨٦ وما بعدها) .

٣ الصفة (١٨٨) .

٤ الصفة (١٨٨) .

يذكرها المسلمون كمراحل لهذا الطريق . ويبدأ الطريق بعان ، ثم يمر الى (فرق) ، ثم الى (عوكلان) ، ثم الى ساحل (هباه) (هماه) ، ثم الى (الشجر) ، وهي بلاد (الكندر) ^١ ، ثم الى مخلاف (كندة) ، ثم الى مخلاف (عبدالله بن مدحج) ، ثم الى مخلاف (لحج) ^٢ ، ثم الى (عدن أبين) ، ثم الى (مغاص اللؤلؤ) ، ثم الى (مخلاف بني مجيد) ، ثم الى (المنجلة) ، ثم الى مخلاف الركب ، ثم الى المنذب ، ثم الى مخلاف زبيد ، ثم الى غلافقة ، ثم الى مخلاف عك ، ثم الى الحردة ، ثم الى مخلاف حكم ، ثم الى عثر ، ثم الى مرسى ضنكان ، ثم الى مرسى حلي ، ثم الى السرين ، ثم الى أغيار ، ثم الى الهرجاب ، ثم الى الشعبية ، ثم الى منزل لم يذكر (ابن خرداذبه) اسمه ، ثم الى (جدة) وهي اسلامية ، لم تكن في الجاهلية ، وإنما ذكرت هنا ، لأن هذا الطريق ، كان يسلك في الاسلام ، ومن جدة الى مكة ^٣ .

ويوجد طريق بري بين مكة وحضرموت يمر بـ (نجران) و (الضحيان) و (تليلث) ، وهو طريق مختصر يكون الجادة الى حضرموت ^٤ .

وذكر (الهمداني) ان محجة حضرموت من العسير الى الجوف ، ثم صعدة ، وتنضم معهم في هذه الطريق أهل مأرب ، وبيحان ، والمسروين ، ومرخة ، وهذه محجة حضرموت العليا . وأما محجتها السفلى ، فن العبر في شتر صيهدي الى نجران ، ثم من نجران حيونن ، ثم الملحاح ، ثم لوزة ، ثم عبالم ثم مريع ، ثم الهجيرة ، ثم تليلث ، ثم جاش ، ثم المصامة ، ثم مجمعة ترج ، والتقت بمحجة صنعاء بتبالة ^٥ .

١ قال الشاعر :

اذهب الى الشجر ودع عمانا الا تجسد تمرا تجد لبانا

المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٩٣/٣) ، (شجر) .

٢ « ولحج بفتح فسكون بعدن أبين . سمي بلحج بن وائل بن القوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميع بن حمير بن سبأ » ، تاج العروس (٩٤/٢) .

٣ المسالك (١٤٧ وما بعدها) ، قدامة (١٩٢ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٥٧/٥) .

٤ تاج العروس (٢١٧/١٠) ، (ضحا) .

٥ الصفة (١٨٨ وما بعدها) .

الفصل الرابع بعد المئة

الاسواق

والسوق المحل الذي يتسوق منه . وهي إما ثابتة مع أيام السنة ، يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء ، وإما موسمية ، تعقد في مواسم معينة ، فإذا انتهى الموسم رفعت . ويقال للسوق القسيمة كذلك^١ .

وتكون الأسواق الثابتة في مواضع السكن ، كالقرى والمدن والمستوطنات، أي بين (الحضر) ، حيث القرار والاستقرار والإقامة ، فيجلس الناس في السوق يبيعون ما عندهم من سلع ، يبسطونها على الأرض ، أو على (الدكة) المبنية للجلوس عليها ، ولعرض البضاعة فوقها ، أو على مائدة أو ما شابه ذلك، وهم من صغار الباعة ممن لا تكون عندهم سلع كثيرة . أما الباعة الكبار فيجلسون في (حوانيت) ، وهي (الدكاكين) ، يبيعون فيها سلعهم التي توضع فيها ، ولها أبواب ، فإذا انتهوا من البيع ، أغلقوها ليعودوا إليها في اليوم الثاني . ويقال للحانوت (المبيعة) كذلك .

ولم يكن كل الباعة يملكون حوانيتهم ، أو ما يعرضونه من سلع للبيع . فبينهم

١ « والقسيمة ، وهي السوق أيضا » ، القاموس (٤/١٦٥) ، والقسيمة كسفينة ، وبه يفسر قول عنتره :
وكان فأرة تاجر بقسيمة
وعلى قول ابن الأعرابي أصله القسيمة فأشبع الشاعر ، ضرورة . وهي السوق ،
تاج العروس (٢٧/٩) ، (قسم) .

من كان يشتغل لغيره ، كأن يكون مملوكاً ، أقامه سيده في (مبيعته) ، لبيع عنه ، وليأتي بثمان ما باعه اليه ، ومنهم من كان أجيراً اتفق مع صاحب الخانوت ومالكه على أن يشتغل عنده في مقابل أجر يقدمه اليه ، فهو لا ينال من الدكان إلا أجر عمله .

والبيع في العربية من الأضداد ، يقال : باع فلان اذا اشترى ، وباع من غيره . والبائع هو كل من البائع والمشتري ، والبياعة : السلعة ، والتبايع المبايعة ، والبيعة الصفقة على ايجاب البيع وعلى المبايعة ، والمبيعة الدكان ، أي موضع البيع^١ .

وقد تخصص بعض الجاهلين في عمله ، فمنهم من كان حدّاداً ، حرفته معالجة الحديد ، ومنهم من كان نجاراً ، ومنهم من كان بزّازاً ، ومنهم من كان عطّاراً ، ومنهم من كان (جزاراً) حرفته (الجزارة) . وقد يجتمع صنف واحد من الباعة في مكان واحد ، يكونون سوقاً خاصة بهم ، فتسمى سوقهم باسم ذلك الصنف .

وهناك مصطلحات تطلق على السوق من حيث الرواج والكساد . فإذا نشطت السوق وراج عمل أصحابها قيل نفقت السوق^٢ ، واذا كسدت قيل انحدمت^٣ .

و (الصفقة) البيعة . يقال صفقة رابحة و صفقة خاسرة ، أي بيعة . وإنما قيل للبيعة صفقة ، لأنهم إذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، ويقال لمن لا يشتري شيئاً إلا ربح فيه : إنه لمبارك الصفقة . والصفقة تكون للبائع والمشتري . والصفق التبايع . وفي حديث (ابن مسعود) صفقتان في صفقة ربا ، أراد بيعتان في بيعة ، وهو على وجهين ، أحدهما أن يقول البائع للمشتري بعثك عبدي هذا بمائة درهم على أن تشتري مني هذا الثوب بعشرة دراهم ، والوجه الثاني أن يقول بعثك هذا الثوب بعشرين درهماً على أن تبيني سلعة بعينها بكذا وكذا درهماً^٤ .

و (الصفاق) الكثير الأسفار والتصرف في التجارات^٥ .

- ١ تاج العروس (٢٨٤/٥ وما بعدها) ، (بيع) .
- ٢ القاموس (٢٨٦/٣) ، تاج العروس (٧٩/٧) .
- ٣ القاموس (٢٢٤/٣) ، تاج العروس (٣٢٤/٦) .
- ٤ تاج العروس (٤٠٩/٦) ، (صفق) .
- ٥ تاج العروس (٤٠٩/٦) ، (صفق) .

وقد يشهد الأسواق للتجارة قوم لا رأس مال عندهم ولا نقد لديهم ، فإذا اشترى التجار شيئاً دخلوا معهم فيه . ويقال لهؤلاء : (الصعافقة)^١ .

وقد ترد التجارة من الخارج لبيعها في السوق . ويقال للذين يجلبون الإبل والغنم للبيع الأجلاب والجلب . وذكر ان الجلب ما يجلب من إبل وغنم وخيل ومتاع وسبي . وفي المثل : النفاض يقطر الجلب ، أي اذا نفص القوم ، بمعنى نفدت أزوادهم قطروا إبلهم للبيع ، كالجلبية و (الجلوبة)^٢ . ويقال لموضع بيع النعم : (المربرد)^٣ .

وتتمتار القبائل ميرتها من أسواق الحضر ، والميرة الطعام يمتاره الانسان، و جلب الطعام . فكان رجالها يقصدون الأسواق في المواسم وعند الحاجة لشراء ما فيها من طعام يحتاجون اليه ، ومن حاجيات أخرى يحتاجون إليها، ثم يعودون الى منازلهم . و (الميار) جالب الميرة ، ويقال للرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتمتار (ميارة)^٤ .

و (السواقط) الذين يردون اليامة لامتيار التمر ، و (السقاط) ما يحملونه من التمر^٥ .

ويقال لكل سوق يجلب اليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة (لطيمة) . والميرة لما يؤكل . وذكر أن اللطيمة سوق فيها أوعيسة من العطر ونحوه ، وربما قيل لسوق العطارين لطيمة^٦ .

ويقال للإبل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام (ركاباً) ، حين تخرج وبعدما تجيء . وتسمى عبراً على هاتين المنزلتين . والتي يسافر عليها الى مكة أيضاً ركاب تحمل عليها المحامل والتي يكثرون ويحملون عليها متاع التجار وطعامهم كلها ركاب ، ولا تسمى عبراً ، وإن كان عليها طعام إذا كانت مؤاجرة بكرى . وليس العير التي تأتي أهلها بالطعام ولكنها ركاب . ويقال زيت ركابي ، لأنه

- ١ تاج العروس (٦/٤٠٧) ، (الصعفوق)
- ٢ تاج العروس (١/١٨٤) ، (جلب)
- ٣ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد)
- ٤ تاج العروس (٣/٥٥٢) ، (ماير)
- ٥ تاج العروس (٥/١٥٦) ، (سقط)
- ٦ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم)

يحمل من الشام على ظهور الإبل^١ .

وبياع في الأسواق كل شيء : سلع مختلفة الأصناف والألوان ومنها البشر والحيوان . وقد ذكر العبيد والإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء ، وفي كيفية جباية حصة الحكومة من البيع والشراء ، كما في هذه الجملة المقتبسة من أمر ملكي أصدره الملك (شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان) في تنظيم التجارة والجباية : « بن انسم وإبلم وثورم وبهرم وشامت بمنمو ذيشاتم عبدم فعو اتمم وبهرم »^٢ . ومعناها : « من انس (بشر) وإبل وثيران وبهر تشتري . ومن يشتري عبداً أو أمثاً أو بهراً » . فذكر (انسم) أي (انس) وذكر بعدهم الإبل والثيران والبهر وغير ذلك . وكيف يميز بين الانسان والحيوان ، والانسان في ذلك الوقت سلعة ، مثل سائر السلع تباع وتشتري ، ليكون عبداً وخادماً ومملوكاً لمشتريه !

والبضاعة ، القطعة من مال يتجر فيه . وأبضعه البضاعة أعطاه اياها^٣ . وهي من الألفاظ التجارية التي لا زالت رائجة جارية على كل لسان في الأسواق . ويقال لثمن الشيء : (القيمة) ، وهو ثمن الشيء بالتقويم . وقومت السلعة ثمنتها . ويقول أهل مكة : (استقمتها) ، أي ثمنتها ، ويقولون استقمت المتاع ، أي قومتها^٤ .

(و العينة) خيار المال . وعين التاجر ، إذا باع من رجل سلعته بثمن معلوم الى أجل معلوم ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وقد كره العينة أكثر الفقهاء وروى فيها النهي^٥ .

وقد كانت بالقرى والمدن أسواق محلية ، فكان بمكة والمدينة أسواق بها مبيعات . ويظهر أن (ملأ) القرى كانوا يشرفون عليها ويأخذون ضرائب البيع والشراء منها . وقد ورد أن (عمر) استعمل على سوق المدينة (السائب بن يزيد) وسليمان بن أبي خيثمة وعبدالله بن عتبة بن مسعود^٦ . ولم تشر الرواية الى الأعمال

- ١ تاج العروس (٢٧٧/١) ، (ركب) .
- ٢ REP. EPIGR. 3910.
- ٣ تاج العروس (٢٧٩/٥) ، (بضع) .
- ٤ تاج العروس (٣٦/٩) ، (قوم) .
- ٥ تاج العروس (٢٩١/٩) ، (عين) .
- ٦ الاصابة (١٢/٢) ، (رقم ٣٠٧٧) .

التي أناطها (عمر) بهؤلاء . ولكنني لا استبعد احتمال كون هذا التعيين استمرار
لعادة قديمة كانت متبعة بيثرب قبل الإسلام ، لمراقبة السوق ، ولمنع التلاعب به
وأخذ الحقوق من التعامل بالسوق .

أسواق العرب الموسمية :

وللعرب أسواق يقيمونها شهور السنة ويتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها
سائر العرب بما عندهم من حاجة الى بيع أو شراء^١ . وتقع هذه الأسواق في
مواضع مختلفة متناثرة من جزيرة العرب . فهي إذن أسواق عربية . وهناك أسواق
أخرى قصدتها العرب للتجارة في مواسم وفي أوقات مختلفة ، كانت خارج جزيرة
العرب ، في العراق أو في بلاد الشام أو في الحبشة ، وقد كان العرب يقصدونها
أيضاً للتجارة والامتياز .

وقد ذكر (اليقوبي) ، ان أسواق العرب كانت عشرة أسواق يجتمعون بها
في تجارتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم^٢ . ويظهر
من قول (اليقوبي) هذا من أنهم كانوا يأمنون فيها على دمائهم وأموالهم أثناء
التقائهم بها . ان من دين أهل الجاهلية ، اعتبار هذه الأسواق أماكن حراماً ،
يأمن الانسان فيها دمه وماله ما داموا في ضيافة السوق وحرمته . ولهذا كان لكل
سوق (قومة) يقومون بأمر السوق وبالمحافظة على الأرواح والأموال فيه . فقد
« كان في العرب قوم يستحلون المظالم ، إذ حضروا هذه الأسواق ، فسموا
(المحلّون)^٣ . وهؤلاء (المحلون) ، هم مثل (المحلون) الذين كانوا لا يقيمون
وزناً لحرمه (الحرم) و (الحرمات) ، مثل حرم مكة ، ولا يقيمون للأشهر
الحرم قدرأ ، فكانوا يعتدون فيها وفي كل شهر ، ولذلك قيل لهم (المحلون) .

١ بلوغ الأرب (٢٦٤/١) ، المرزوقي ، الأزمنة والامكنة (١٦١/٢) وما بعدها ،
المفضليات (٢٠٨) ، البكري ، معجم (٩٥٩/٣) ، النقائض (١٣٩/١) ، العقد الفريد
(٢٠٨/٥) ، البيان والتبيين (١٠٠/٣) ، الاغانسي (٢٣/٥) ، (٨٢،٦/١١) ،
(١٦/١٢) ، (٢٤٠/١٥) ، أسد الغابة (٢٢٤/٢) ، الاغانسي (١٤٥/١٤) .

٢ اليقوبي (٢٣٩/١) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٣ اليقوبي (٢٤٠/١) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

ومن المحليين قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة^١ .

ولحماية الأسواق والمجتمع من (المحليين) ، الذين أباحوا لأنفسهم استحلال المظالم ، ظهر قوم من أهل المروءة والمعروف ، تواصلوا فيما بينهم على ردّ السفية عن سفهه والغاوي عن غيته، ونصبوا أنفسهم حماة على الأسواق ، يحملون سلاحهم فيها في الأشهر الحلال وفي الأشهر الحرم للذود عن الحرمات . وقد عرف سثل هؤلاء ب (الذادة المحرمون) . وقد تحدث عنهم (اليعقوبي) ، فقال : « وكان في العرب قوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، فسمّوا المحلّون ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون : الذادة المحرمون . وأما المحلّون ، فكانوا قبائل من أسد وطيء وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة وقوم من بني عامر ابن صعصعة . وأما الذادة المحرمون ، فكانوا من بني عمرو بن تميم ، وبني حنظلة بن زيد مناة ، وقوم من هذيل ، وقوم من بني شيبان وقوم من بني كلب بن وبرة . فكانوا هؤلاء يلبسون السلاح للدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم »^٢ .

والذود في اللغة السوق والطرْد والدفع . فالذادة هم المدافعون الذابون عن المظلومين ، والواقفين أمام الظالمين . وقد ورد (ذادة) بمعنى يذودون عن الحرم^٣ .

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في موضع معين ، إنما كانت تعقد في مواضع مختلفة متعددة من جزيرة العرب . وقد خصصت في الغالب بامتياز الأعراب وبشراء ما عندهم من سلع فائضة عليهم . ولا يستبعد بالطبع ورود التجار الأجانب إليها من غير العرب ، فقد كان الروم مثلاً يتوغلون إلى مسافات بعيدة في هذه الأراضي الشاسعة للبيع والشراء .

وبحكم ورود أناس إلى هذه الأسواق لا يسهل الاجتماع والاتصال بهم في الأوقات الأخرى ، فقد قصدوا أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب أو ترويجاً لرأي ،

-
- ١ اليعقوبي (٢٤٠/١) ، العقد الفريد (٢٠٦/٢) ، البيان والتبيين (١٠٠/٣) .
 - ٢ اليعقوبي (٢٤٠/١) ، النجف ١٩٦٤ م .
 - ٣ : تاج العروس (٣٤٧/٢) ، (ذود) .

فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير في بعض أفرادها لادخالهم في دينهم .
وفي كتب السير : ان الرسول نفسه كان يخرج في المواسم ، لعرض نفسه على
القبائل ، ولهدايتهم الى الاسلام .

ومن أشهر أسواق العرب عند ظهور الإسلام : (سوق دومة الجندل) ،
(سوق هجر) ، و (سوق عمان) ، و (سوق المشقر) ، و (سوق
عدن أبين) ، و (سوق صنعاء) ، و (سوق حضرموت) ، و (سوق
ذي المجاز) ، و (سوق مجنة) ، و (سوق عكاظ) ، و (سوق حباشة) ،
و (سوق صحار) ، و (سوق بدر)^١ ، و (سوق بني قينقاع) ، و (سوق
الشحر) ، و (سوق عثر) ، وأسواق محلية أخرى تأتيها القبائل والعشائر
للامتياز. وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية
ثلاث عشرة سوقاً ، وأولها قياماً دومة الجندل^٢ .

وذكر (الهمداني) ، أن من أسواق العرب القديمة : عدن ، ومكة ، والجدند ،
ونجران ، وذو المجاز ، وعكاظ ، وبدر ، ومجنة ، ومنى ، وحجر اليمامة ،
وهجر البحرين^٣ . وسوق (همل) من الخارف ببلد حاشد^٤ . وهناك أسواق أخرى
عديدة وردت أسماءها عرضاً في روايات أهل الأخبار .

أما (دومة الجندل) ، فكانوا ينزلونها أول يوم من شهر ربيع الأول ،
يجمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل . وكان أكيدر صاحب دومة الجندل
يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم ، وتدوم سوقهم الى نصف الشهر . وكان
(أكيدر) يعثر الناس ، وربما يتولاها بنو كلب الذين يأتونهم متأخرين ،
فيتولونها ، وتدوم عندئذ الى آخر الشهر ، ويتولون هم حينئذ تعشير الناس^٥ .
ويعرف البيع فيها بـ (بيع الحصاة) ، وهو نوع من أنواع المقامرة أبطله

١ الطبري (٢/٢٧٦) ، صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .

٢ المرزوقي ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .

٣ الصفة (١٧٩ وما بعدها) .

٤ الصفة (١١٣) .

٥ البلدان (٤/١٠٦ وما بعدها) ، (٢/٦٢٨ وما بعدها) ، « طبعة طهران » سنة

١٩٦٥ ، اليعقوبي (١/٢٢٦) « طبعة النجف » ، ابن خلدون (٢) ، القسم الاول

ص (٧٧٣) « بيروت ١٩٥٦ م » .

الاسلام^١. وكانت تقصدها قبائل الشام والحجاز والأقسام الشمالية والغربية من أعالي نجد ، وتقيم بالقرب منها كلب وجديلة طيء .

وكان الذي يشرف على هذه السوق سادات العرب من كلب أو من غسان ، يتنافسون عليها ويتزايدون ، فأبي الحيين فاز ، خضع ودان له الآخر . وكان مكس هذه السوق لمن يتولى الاشراف عليها . وهم جميعاً يأخذون الاذن بالإشراف على السوق من الملك الذي يحكم الموضع في ذلك الوقت^٢ . وكان الإشراف على هذه السوق عند ظهور الاسلام بين (الأكيدر) وبين (قنافة الكلبي) الذي كان ينافسه على الملك^٣ .

وذكر (ابن حبيب) انه « كان لكلب فيها قنّ كثير في بيوت شعر ، فكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء ويأخذون كسب أولئك البغايا ، ولما كان الاسلام حرم هذه العادة بالآية : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »^٤ .

ودومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ ، ومن مغربسه عين تثج فتسقي ما به من النخل والزرع ، ودومة ضاحية بين غائطها واسم حصنها ماردم^٥ . وهو حصن قديم ، ورد ذكره في الشعر الجاهلي وفي كتب الأدب . وقد اكتسب شهرة كبيرة بين الجاهليين حتى ضربوا به وب (الأبلق) حصن السموأل المثل في العزّ والمنعة ، فقالوا : « تمرد ماردم وعز الأبلق » ، قالوا : قصدتها الزبباء فعجزت عن قتالها ، فقالت : « تمرد ماردم وعزّ الأبلق » ، وذهب مثلاً لكل عزيز ممتع^٦ . ويظهر أن حصن (ماردم) كان من الحصون الحصينة القديمة التي

- ١ بلوغ الارب (١/٢٦٤ وما بعدها) ، المسعودي ، التنبيه (٢١٤) ، الطبري (٢/٥٧٨) « مطبعة الاستقامة » ، تاريخ الخميس (١/٢٠) وما بعدها ، فتوح البلدان (١/٦٨ وما بعدها) ، جمهرة أنساب العرب (٤٠٣) ، فتوح البلدان (٢٢٣) « دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٥٧ » .
- ٢ البلدان (٤/١٠٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦١ وما بعدها) ، المحبر (٢٦٤) ، البكري (٢/٥٦٤ وما بعدها) ، مراصد الاطلاع (٢/٥٤٢ وما بعدها) ، التاريخ الكبير (١/٨٩ وما بعدها) ، المسالك والممالك (١١٥) الكامل (٢/١٩٢) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١) .
- ٣ النور ، الرقم ٢٤ ، الآية ٣٣ ، المحبر (٢٦٤) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦١ وما بعدها) ، البلدان (٤/١٠٦) .
- ٤ تاج العروس (٨/٢٩٧) ، (دوم) .
- ٦ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

بنيت ب (الجندل) ، أي الحجر^١ .

ولم تكن دومة الجندل سوقاً يقصدها التجار في موسم واحد معين ، بل كانت مفرقاً مهماً من مفارق الطرق ، وموضعاً يقصده أصحاب القوافل الذاهبون من جزيرة العرب الى العراق والى بلاد الشام ، وبالعكس ، لوجود الماء العذب بها ، وما يحتاج المسافر اليه من زاد وماء . وهي اليوم (الجوف) في المملكة العربية السعودية .

ويقصد سوق المشقر الأعراب الساكنون في العربية الشرقية والأعراب القرييون الى هذا الموضع ، ويرد الى هذه السوق تجار فارس بياعاتهم يقطعون البحر ، فيتاجرون مع من يقصد هذه السوق من القبائل والحضر . وكانت بنو تميم وعبد القيس جيرانها . أما المشرف عليها فرؤساء تميم من بني عبدالله بن زيد رهط المنذر بن ساوى ، وكانوا يتلقبون بألقاب الملك . ويسيرون في معاملتهم في هذه السوق سيرة الملوك بدومة الجندل ، ويأخذون العشر . وكان من يؤمها من التجار يتخفرون بقريش ، لأنها لا تؤتي إلا في بلاد مضر . وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة . وتقوم سوقها أول يوم من جادى الآخرة الى آخر الشهر^٢ .

وقد قصد هذه السوق أحياء من العرب من مختلف أنحاء جزيرة العرب ، كما وفدت اليها اللطائم . وطالما اعجبت أرض هجر ، وموضع المشقر منها ، بعض هؤلاء الأعراب فيبقون فيها ولا يرتحلون عنها ، فمن هناك صارت بهجر طوائف من كل حي من العرب وغيرهم^٣ .

ويحتمى المشقر حصن قديم قويم ، يقال ورثه (امرؤ القيس) ، وقد أشير اليه في الشعر . قال عنه (المخبل) :

١ تاج العروس (٧/٢٦٦) ، (الجندل) .

٢ المحبر (ص ٢٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، البكري ، معجم (٤/١١٩٣) ، البلدان (٥/١٣٤) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٢ وما بعدها) ، اثار البلاد وأخبار العباد (ص ٧٣) ، مراصد الاطلاع (٣/١٢٧٥) ، البكري (٣/١٢٣٢) .

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) .

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونه الهمم
لتنقبن عني المنية ان الله ليس كعلمه علم^١

وكان من الحصون التي تحمي قرى ساحل الخليج من الأعراب ، به حامية كبيرة ، تغلق عليها الأبواب عند ذنو الخطر . ويظهر من قصة فتك المكعب بتميم ، أنه كان ذا باين ، وكان قد بني لحماية المنطقة من الأعراب وللمحافظة على الأمن . وقد كان حصناً كبيراً ادخر فيه الفرس الميرة والأرزاق لتوزيعها على الأعراب أيام المجاعة . وبه جنود من الفرس ، يحكمهم قواد منهم ، يقومون بضبط الأمن ومراقبة حركات الأعراب .

وتعقد سوق هجر في شهر ربيع الآخر ، وكان الذي يتولى تعشير التجار بها (المنذر بن ساوى) ، أحد بني عبدالله بن دارم . وهو ملك البحرين^٢ . وهجر اسم لجميع أرض البحرين ، وقصبة بلاد البحرين . وقد عرفت بكثرة تمرها ، ومنه المثل كمبضع تمر الى هجر . وذكر أن (عمر) تذكرها فقال : عجبت لتاجر هجر وراكب البحر ، كأنه أراد لكثرة وبائها ، فتاجرها وراكب البحر في الخطر سواء^٣ . ويظهر أنها كانت موبوءة .

ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين أيضاً ، فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون (لارم) وقرى الشحر ، فتقوم أسواقهم بها أياماً . ثم يرتحلون فينزلون سوق عدن^٤ .

أما (سوق عدن) ، فكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان الى عشر يمين منه . وكانت الأبناء هي التي تعشر التجار بها ، والأبناء هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن مع وهرز وقتلوا الحبشة . وكان التجار لا يتخفرون فيها بأحد ، لأنها أرض مملكة ، وأمرها محكم^٥ . أما ما قبل حكم الأبناء . فقد كان يعشر هذه

١ وقال عنه « لبيد » :

وأفنى بنات الدهر أرباب ناعط
وأنزلن بالدومي من رأس حصنه

تاج العروس (٣/٣١١) ، (شقر) .

٢ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٣/٦١٣ وما بعدها) ، (هجر) .

٤ صبح الاعشى (١/٤١١) .

٥ المعبر (ص ٢٦٦) .

السوق ملوك حير ، ثم من ملك اليمن من بعدهم . وأشهر ما يباع فيها الطيب . ولم يكن أحد يحسن صنع الطيب من غير العرب ، حتى ان تجار البحر ترجع بالطيب المعمول تفخر به في السند والهند ، ويرحل به كذلك تجار البر الى فارس والروم^١ .

وأما سوق صنعاء ، فكانت تقوم في النصف من شهر رمضان الى آخره . وكانت الأبناء تعشرهم . وكان بيعهم بها الجس جس الأيدي^٢ . وقد اشتهرت ببيع الخرز والأدم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر^٣ . والقطن والكتان والزعفران والأصباغ وأشباهاها مما يتفق بها ، ويشترون بها ما يريدون من البر والحديد وحاصلات اليمن وما يأتي الى اليمن من تجارات البحار^٤ .

وسوق ذي المجاز ، قريبة من عكاظ ، وتقوم أول يوم من ذي الحجة الى يوم التروية . ثم يصيرون الى منى^٥ . وقد كانت لهذيل . وكانت مبيعة العرب بها بالقاء الحجارة ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول السلعة يساومون بها صاحبها ، فأيمهم أراد شراءها ألقى حجراً ، وربما اتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون . وربما ألقوا الحجارة جميعاً فيوكسون صاحب السلعة اذا تظاهروا عليه . وكانت قريش تخرج قاصدة اليها من مكة ، فإن اخذت على حزن لم تتخفر من القرب حتى ترجع ، وذلك أن مضر عامتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري مع تعظيمهم لقريش ومكانتهم في البيت^٦ .

وأما سوق حُباشة ، فن أسواق العرب المشهورة القديمة في الجاهلية في العربية الغربية . وهي سوق بنهامسة ، يتاجر فيها أهل الحجاز . وأهل اليمن . وكان

- ١ الازمنة والامكنة (١٦٥/٢) ، اليعقوبي (٢٣٦/١) .
- ٢ المحبر (ص ٢٦٦) .
- ٣ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .
- ٤ الازمنة والامكنة (١٦٥/٥) ، اليعقوبي (٢٣٦/١) .
- ٥ المحبر (ص ٢٦٧) .
- ٦ الازمنة والامكنة (١٦١/٢) .

في جملة من حضرها وتاجر فيها الرسول^١ . وكانت تقام في شهر رجب^٢ .
وحباشة سوق أخرى كانت لبني قينقاع^٣ .

وكان الجلندي بن المستكبر ، هو الذي يعشر تجسار سوق صحار بعمان ،
وكذلك تجار سوق (دبا) . وكان يقصد سوق (دبا) تجار السند والهند والصين
ومواضع أخرى ، فهي سوق عظيمة كبيرة ، ذات تجارة مسع العالم الخارجي .
احدى فرضتي العرب . ويقوم سوقها آخر يوم من رجب . وكان بيعهم فيها
المساومة . وتقوم سوق صحار أول يوم من رجب . تقوم خمس ليال^٤ . ويذكر
بعض أهل الأخبار ان البيع في سوق صحار هو بالقاء الحجارة^٥ .

وقد اشتهرت (صحار) بثيابها ، فعرفت باسمها ، كما كانت سوقاً للتجارات
المستوردة من اليمن والصين والبحرين والهند . ولذلك كانت سوقاً نشطة ، وبها
أصحاب حرف وصناعة^٦ .

وأما (بدر) ، فكان موضعاً فيه ماء وفيه وقعت معركة بدر الكبرى . وكان
موسماً من مواسم العرب ، تجتمع لهم بها سوق كل عام ، يجتمعون فيه للتجارة
وللتنزه ، فكانوا ينحرون ويطعمون ويشربون ويسمعون الفناء^٧ . وذكر ان موضع
(بدر) بئر حفرها رجل من غفار ، ثم من (بني النار) اسمه بدر . وذكر
انه (بدر بن قريش بن يخلد)^٨ ، وبه سمي الموضع بدرأ ، وقيل بدر رجل
من (بني ضمرة) سكن المكان فنسب اليه^٩ ، وهو بين مكة والمدينة أسفل
وادي الصفراء ، وهو الى المدينة أقرب ، وبينه وبين (الجار) ، وهو ساحل

-
- ١ بالضم والشين معجمة ، البلدان (٢٠٦/٣) ، شرح القاموس ، (٢٩٣/٤) . وقد كان هذا الموضع هو السبب الباعث لياقوت الحموي على تأليف كتاب معجم البلدان ، راجع مقدمة الجزء الاول من معجم البلدان .
 - ٢ أخبار مكة ، للازرقي (١٩٤/١ وما بعدها) .
 - ٣ تاج العروس (٢٦٣/٦) ، البلدان (٢٠٦/٣) .
 - ٤ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) .
 - ٥ اليعقوبي (٢٣٦/١) « النجف » ، الازمنة والامكنة (١٦٣/٢) .
 - ٦ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة « صحار » .
 - ٧ الطبري (٢٧٩/٢) ، البلدان (٨٨/٢) .
 - ٨ الروض الانف (٦١/٢) .
 - ٩ تاج العروس (٣٤/٣) ، (بدر) .

البحر ومرقاً ليلة^١. ويظهر انه كان من المواضع المقدسة على شاكلته (سوق عكاظ) به أحجار ، يتقرب اليها الناس ، وبه ماء فصار سوقاً في موسم المخصص له ، يقصده الناس من مكة ومن المواضع القريبة لبيع ما عندهم من نأجهم فيه، ولشراء ما يحتاجون اليه منه .

وأما سوق بني قينقاع ، فسوق لليهود يذهب اليها الناس للتأجار وابتياح ما عند يهود من سلع ، ولبيع ما عندهم ليهود .

أما (سوق الشحر) شحر مهرة ، فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود . ولم تكن بها عشور ، لأنها ليست بأرض مملكة . وكانت التجار تتخفر فيها ببني محارب بن هرب ، من مهرة . وكان قيامها للنصف من شعبان . وكان يبيعهم بها إلقاء الحجارة^٢ . وكان غالب ما يعرض فيها الأدم والبز وسائر المرافق. ويشترون بها الكندر ، والمر ، والصبر ، ويقصدها تجار من البر والبحر^٣ .

وأما سوق الرابية بمضرموت ، فلم يكن يصل اليها أحد إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة . وكان من عز فيها بز صاحبه . فكانت قريش تتخفر فيها ببني آكل المرار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة^٤ . وتقوم سوق نطاة بخيبر وسوق حجر باليامة يوم عاشوراء الى آخر المحرم^٥ .

وأشهر الأسواق المتقدمة وأعرفها (سوق عكاظ) ، وهي سوق تجارة وسوق سياسة وسوق أدب ، فيها كان يخطب كل خطيب مصقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل على ما يذكره بعض أهل الأخبار . وكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحباش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . وكانت تقوم للنصف من ذي القعدة الى آخر الشهر . ولم تكن فيها عشور ولا خفارة . وكان يبيعهم السرار : إذا وجب البيع

١ تاج العروس (٣/٣٤) ، (بدر) .

٢ المحبر (ص ٢٦٦) .

٣ الازمنة والامكنة (٢/١٦٣) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، تاج العروس (٦/٢٩٣) .

٤ المحبر (ص ٢٦٧) ، الازمنة والامكنة (٢/١٦٥) ، اليعقوبي (١/٢٣٦) .

٥ المحبر (ص ٢٦٨) .

وعند التاجر فيها لالف ممن يريد الشراء ولا يريد أشركه في الربح^١ .
 وذكر ان عكاظ نخل في وادي بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث
 ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب . وقيل : عكاظ ماء ما بين نخلة والطائف
 الى بلد يقال له الفتح ، كانت موسماً من مواسم الجاهلية . تقوم هلال ذي القعدة
 وتستمر عشرين يوماً . وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيعكظون ، أي يتفاخرون
 ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، يقيمون على ذلك شهراً ، يتبايعون ثم يتفرون .
 فلما جاء الاسلام هدم ذلك^٢ .

وذهب فريق من أهل الأخبار الى أن انعقاد سوق عكاظ إنما كان يقوم بهلال
 شهر ذي القعدة ويستمر لمدة عشرين يوماً^٣ . وهم يخطئون رأي من يذهب الى
 أن انعقاد السوق كان في شهر شوال ، وحجتهم أن انعقاد السوق كان في الأشهر
 الحرم ، ليراعي الناس حرمة تلك الأيام فلا يعتدون على من يقصد السوق، وشهر
 شوال لا يدخل في جملة الأشهر الحرم ، لذلك فلا يمكن أن يكون انعقاد السوق
 فيه . ويستدلون بدليل آخر ، هو تقابل بعض العرب في أسام عكاظ ، ونظراً
 لوقوع ذلك القتال في شهر حرام ، أطلقوا على تلك الأيام ، أيام الفجار ، وهي
 أربعة أيام : يوم شمطه، ويوم العباء ، ويوم الحريرة ، ويوم شرب ، وهذه
 الأسماء هي أسماء أماكن في عكاظ . وما كان العرب ليطلقوا على تلك الأيام أيام
 الفجار لو لم تكن قد وقعت في أيام حرم^٤ .

- ١ الحيوان ، للجاحظ (٢١٥/٧) ، البكري ، معجم (٩٥٩/٣) وما بعدها) ، المحبسر
 (ص ٢٦٧) ، « وكانت تقوم هذه السوق في قول أول ذي القعدة الى عشرين منه ،
 ثم يتوجهون الى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون الى أوطانهم .
 وفي قول آخر : انهم كانوا يقيمون به جميع شوال الى غير ذلك من الاقوال المختلفة .
 ولعل ذلك لاختلاف العادة في السنين ، أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا
 الموسم . والذي عليه صاحب قبائل العرب ، أنهم كانوا يقيمون في هذه السوق من
 نصف ذي القعدة الى آخره ٠٠٠ » بلوغ الارب (٢٧٠/١) .
- ٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
- ٣ مرصد الاطلاع (٩٥٣/٢) ، القاموس المحيط (٣٩٦/٢) ، أخبار مكة ، للازرقي
 (١٢٩) ، صبح الاعشى (٤١٠/١) وما بعدها) ، البلدان (٧٠٤/٣) ، الازمنة والامكنة
 (١٦٥/٢) ، اليعقوبي (٢٣٦/١) .
- ٤ أخبار مكة (١٣٢) ، الاغانى (١٧٦/٩) ، (٩/١٠) ، العقد الفريد (٣٧٧/٣) ، أخبار
 مكة (٦٦/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٣٥٨/١) وما بعدها) .

وجاء في بعض الأخبار ان أشرف العرب كانوا يتوافون بتلك الأسواق مسع
التجار من أجل ان الملوك كانوا يرضخون للأشرف ، لكل شريف بسهم من
الأرباح . فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ ، فإنهم كانوا
يتوافون بها من كل أوب^١ . فسوق عكاظ ، اذن سوق حرة ، لا عشور فيها
ولا خفارة . وهي تختلف بذلك عن بقية الأسواق التي كان يعشرها الملوك ، اذا
كانت في حكم (ملك) ، أو في حكم الأمراء وسادات القبائل ، على أن يودوا
سهماً من الأرباح المتجمعة من العشور والحفارات الى أشرف العرب ، أي سادات
القبائل الذين تقام تلك الأسواق في أرضهم . فأشرف (تميم) وإن أشرفوا على
هذه السوق ، وحكموا بها ، ونظموا أمورها ، إلا أنهم لم يكونوا يجبون شيئاً
من التجار . ولعل ذلك كان بتأثير قريش عليهم ، فقد كان رجال مكة هم
المستأثرون الأثرون في عكاظ . وكانوا يشجعون العرب على حضورها ، لما لهم
فيها من منافع اقتصادية ، وقد كان لهم أنفسهم اشرف على نواح من أمور
السوق . ويظهر انه لأجل تشجيع القبائل على حضور (عكاظ) وجمع أكثر
من يمكن جمعه من التجار ، اتفقوا مع سادات تميم ، ولا سيما مع (بني دارم)
على أن يتركوا السوق حرة ، ليقصدها أي تاجر ، فلا يكلف أحد منهم بكلفة
العشور والحفارة ، ولا يهان أو يعتدى عليه ، وهو بالطبع في شهر حرام ،
ليضمنوا بذلك حضور أكبر عدد ممكن من الناس ، وليضمنوا مجيئهم بعد ذلك
الى مكة ، وقد كانوا يسعون جهد طاقتهم لجلب العرب اليها من الأماكن البعيدة ،
ليستفيدوا منهم في موسم الحج ، وليكونوا معهم صلوات طيبة ، وعلاقات وثيقة
تؤمن لهم ولقوافلهم ولتجارهم حق المرور بأمن وسلام ، وتقديم كل ما يحتاج
اليه رجال القوافل من ماء وطعام ومأوى وحماية .

ويعرض للبيع وللشراء في سوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى كل أنواع
البضاعات ، من آدم ومن حبوب وأقمشة الى بضاعة حية ناطقة هي الحيوان ، أو
الانسان ، حيث يعرض الرقيق في السوق . وقد كان شراء (خديجة) زوجة
الرسول لـ (زيد بن حارثة) من سوق عكاظ^٢ . وقد اشتهرت سوق عكاظ

١ المرزوقي ، الامكنة (٢/١٦٦) .

٢ المعارف (ص ١٤٤) .

بأديهما حتى عرف بين تجار الأديم بـ (الأديم العكاظي)^١ مع أنه لم يكن من حاصل عكاظ ، بل كان يورد الى السوق من مختلف الأنحاء .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (سوق عكاظ) موسم عظيم من المواسم ، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . وهي من أعظم أسواق العرب على الاطلاق في الجاهلية وفي الإسلام . ثم تضاعف شأنها وخربت بعد سنة (١٢٩) للهجرة ، عندما ظهر الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة ، فنهب هذه السوق ، وخاف الناس على أنفسهم من الذهاب إليها ، فتركت^٢ .

ولو أخذنا هذه الرواية ، نكون قد جعلنا مبدأ هذا السوق سنة (٥٨٥) أو (٥٨٦) للميلاد تقريباً . أي ان تأريخ سوق عكاظ لم يكن بعيد عهد عن الإسلام . فهو قبله بنحو ربع قرن . وقد أقيمت وعمر الرسول آنذاك (١٥) عاماً .

ويذهب الناس بعد سوق عكاظ الى سوق أخرى ، هي سوق مجنة ، فيقيمون بها عشرة أيام . فإذا رأوا هلال ذي الحجة في نهاية هذه الأيام العشرة قصدوا ذا المجاز ، وهي سوق جاهلية ، فيقيمون فيها ثمانية أيام يبيعون ويشتررون ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة ، فيأخذون ذلك اليوم من الماء ما يرويه من ذي المجاز . وقد سمي هذا اليوم باسم يوم التروية لترويه من الماء بذي المجاز ، حيث كان ينادي بعضهم على البعض الآخر أن يرووا من الماء لأنه لا يوجد ماء بعرفة . كذلك لا يوجد ماء بالمزدلفة يومئذ . ويعتبر يوم التروية نهاية أسواقهم . وكان العرب لا يتبايعون في يوم عرفة ولا في أيام منى . فلما جاء الإسلام أحل لهم ذلك^٣ .

وذكر ان (ذا المجاز) موضع بمنى ، وذكر انه سوق كانت في الجاهلية على فرسخ من عرفة ، بناحية كيبك ، سمي به لأن إجازة الحج كانت فيه^٤ . و (كيبك) . جبل بعرفات خلف ظهر الإمام اذا وقف ، وقيل هو ثنية^٥ .

-
- ١ البلدان (٧٠٤/٣) ، تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
 - ٢ الازرقى ، أخبار مكة (١٢٩ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٩٥٩/٣ وما بعدها) ، اللسان (٤٤٧/٧) .
 - ٣ أخبار مكة ، للازرقى (١٢٩ وما بعدها) .
 - ٤ تاج العروس (٢١/٤) ، (جوز) .
 - ٥ تاج العروس (٤٤٤/١) ، (كب) ، (ك/ب/ب) .

ويذكر علماء التفسير ان متجر الناس في الجاهلية كان سوق عكاظ وذو المجاز ، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك . وكانوا لا يتجرون في أيام الحج ، فكانوا لا يبيعون أو يبتاعون في الجاهلية بعرفة ، ويبتاعون ويبيعون قبل وبعد أيام الحج ، اذ كانوا يتأثمون من الاتجار في أيام الحج^١ .

وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش ، تباع قريش ما عندها للأعراب القادمين اليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة ، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع ، ثم تقوم قوافلهم بنقل الفائض مما اشترته الى الأسواق الخارجية في بلاد الشام أو العراق ، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج اليه الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد .

ومكة في مواسم الحج وفي المناسبات الأخرى سوق تجارية مهمة ، لا تقل شأنًا في الواقع عن الأسواق الأخرى . وقد تمكن أهلها النشطون في جمع المال من اكتناز الأموال ومن استثمار ما يحصلون عليه من أرباح حتى صاروا من أغنى الناس في الحجاز .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان حظ المفاخرة والمباهاة والتمسح والذم ، لم يكن بأقل من حظ البيع والشراء في سوق عكاظ . فقد كان الشعراء يعرضون أجود وأحدث ما عندهم من شعر على الحاضرين^٢ . وكان كثير من هؤلاء الحاضرين إنما يفدون اليها للوقوف على أحدث ما يقال من صنوف الشعر ، وهو صنف رائع أكثر من رواج النثر بالطبع ، لما فيه من ايقاع وموسيقى ووزن وسهولة في الحفظ وأثر في النفس ، لذلك كان للشاعر في هذه السوق مكانة تزيد كثيراً على مكانة التاجر فيها ، لما لشعره من أثر في الحياة العامة لمجتمع ذلك اليوم .

ويقال إن الشاعر الشهير (النابغة الذبياني) ، كان يحضر سوق عكاظ ، فتضرب له قبة من آدم ، يجلس تحتها ، فيفد اليه من الشعراء من يريد أن يفتخر

١ تفسير الطبري (٢/١٦٥ وما بعدها) .
٢ ناج العروس (٥/٢٥٤ وما بعدها) ، اللسان (٩/٤٤٧) ، « وقد كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة ، يتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون » ، البلدان (٦/٢٠٣) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني (ص ٦٤٢) .

بشعره على غيره ، لينشد أمامه شعره ، فيحكم على شعره برأيه ، لما لرأيه من أثر في الناس . وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكما اليه وكذلك الشاعرة الخنساء^١ .

ومن حضر عكاظ الخطيب الجاهلي الشهير (قس بن ساعدة الأيادي) (شيشرون) العرب ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، الشاعر المعروف^٢ . ويذكر أهل الأخبار ان الرسول رأى (قس بن ساعدة الأيادي) يخطب في هذه السوق . وقد قصد الرسول سوق عكاظ وسوق مجنة وذو المجاز ، يدعو من كان يحضر المواسم الى دين الله . وقيل انه مكث سبع سنين يتبع الناس في مواسمهم في سوق عكاظ ، وكان فيمن كلمهم ودعاهم الى الاسلام (بنو عامر بن صعصعة)^٣ .

وحال الأسواق الأخرى مثل حال سوق عكاظ من حيث ورود الشعراء اليها لعرض ما عندهم من شعر جديد . والظاهر ان قرب سوق عكاظ من مكة ، وورود الحجاج اليها قبل البدء بالحج ، ثم ورود اسمها في أخبار الرسول، ولكونها سوق مكة وتجار قريش ، ووقوعها في أرض يتكلم أهلها باللغة التي نزل بها الوحي ، هذه الأسباب وغيرها هي التي خلّدت اسم هذه السوق ، وربطت بينها وبين الشعر والنثر ، أكثر من الأسواق الأخرى التي كانت بعيدة عن مكة ، وبعيدة لذلك عن ذاكرة أهل الأخبار .

هذا وان للباحثين في موضع سوق عكاظ آراء متباينة فيه . ولا زالت هذه الآراء متباينة فيه حتى اليوم^٤ .

هذا ، وقد كان موضع عكاظ في الأصل مكاناً مقدساً على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار . فقد ذكروا أن العرب كانت تطوف بصخور كانت هناك ويحجون اليها ، وكانوا يذبحون وينحرون الى تلك الأصنام والأنصاب . حتى تلطخت تلك

١ الاغانى (١٥٦/٩) « مطبعة التقدم » ، شعراء النصرانية (٥/٦٤٠) .

٢ الاغانى (١٧٦/٩) .

٣ البكري (٥/٢٥٩) وما بعدها ، ابن كثير ، البداية (٣/١٤١) .

٤ لسان العرب (٧/٤٤٧) ، معجم ، البكري (٣-٤/٩٦١) ، البلدان (٣/٧٠٤) ، القاموس (٢/٣٩٦) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) ، مرصد الاطلاع (٢/٩٥٣) ، شرح ديوان الحماسة (٣/١٥١٤) وما بعدها .

الأنصاب والأرض التي تحيط بها بدماء البدن^١. ويظهر أن أهمية ذلك المكان الدينية كانت قد قلّت بالتدرج ، إذ غطت قدسية مكة عليه . ولما جاء الإسلام، وأزال الأنصاب والأصنام ذهب كل أهمية لمحجة عكاظ واختفت أهمية السوق معه حتى ماتت على نحو ما ذكرت .

ويتقدم سادات الناس في مثل هذه المناسبات الى أهتهم باطعام الفقراء واطافة الناس . وكان (خويلد بن فضيل بن عمرو بن كلاب) المعروف بـ (الصعق) ، لأن صاعقة نزلت عليه فأحرقته ، ممن يطعم بعكاظ . وكان من سادات قومه^٢ . ويترك هذا الكرم أثراً في نفوس من يحضر السوق ، ويكون سبباً للحصول على ثناء ومديح الشعراء على أولئك الكرماء .

والظاهر من روايات أهل الأخبار عن هذه الأسواق ، انها كانت كلها في الأصل ، مواضع مقدسة ، لها أصنام تعبدها القبائل . وتأتي للتقرب اليها في مواسم معينة ، هي مواسم حجها ، فتتحول تلك المواسم الى أسواق للبيع والشراء . فقد ذكروا ان (بني وبرة) ، كانوا يقدون الى (دومة الجندل) للتقرب الى (ود) ، وكان سدنته من (بني الفرافصة بن كلب)^٣ ، وأن (بني عبد القيس) كانوا يتقربون الى صنم لهم اسمه (ذو اللب) ، وكان بالمشقر ، وسدنته (بنو عامر)^٤ .

ويجب ألا ننظر الى هذه الأسواق نظرنا الى السوق بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر . فقد كانت أسواق الجاهلية أوسع مجالاً من ذلك بكثير . كانت مجامع لأهل اللسان من شعراء ومن خطباء ، من مرموقين معروفين ومن مغمورين طلاب شهرة ، قصدوا هذه الأسواق للحصول على اسم وسمعة ، كما هو شأن سوق عكاظ . كما كانت مجتمعات تعقد فيها العقود والمعاهدات والانفاقات القبلية والعائلية ، ومواضع يعلن فيها عن التبني وعن الخلع ، أي خلع الأفراد ،

- ١ البلدان (٢٠٣/٦) ، البكري (٩٥٩/٣ وما بعدها) .
- ٢ جمهرة ، ابن حزم (ص ٢٦٩) .
- ٣ جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (ص ٤٥٨) .
- ٤ جمهرة ، ابن حزم (ص ٤٦٠) .

لجرائم يرتكبونها ، وهي ساحات محاكم ، يجلس فيها المتخاصمون للاستماع الى قرار حاكم مهاب محترم ، اتفقوا على تحكيمه في نزاعهم . وقد كانت الحكومة في هذه السوق الى (بني تميم) ، وكان آخر من حكم منهم فيها : الأقرع بن حابس التميمي^١ .

ويروي أهل الأخبار أن فرسان العرب كانوا إذا حضروا موسم عكاظ تقنعوا إلا (أبا سليط) (طرفة بن تميم) ، فارس عمرو بن تميم في الجاهلية ، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن تقع عيون الفرسان عليه ، وذلك اعتماداً على نفسه وازدراءً لشأن أعدائه ومن يريد إلحاق الأذى به^٢ . وقد كانت سوق عكاظ وبقية الأسواق ، من أهم المواضع التي تجلب أنظار الفرسان إليها ، إذ كان الكثير منهم يتصيدون فرص الأخذ بالثأر ، بعد انقضاء موسم السوق ، أو الحصول على غنائم بمهاجمة التجار ومن يحمل تجارة دسمة أو حمولة ثمينة ، ولهذا كان لا بد للفرسان ومن يريد الحصول على مغنم أو تنفيذ مأرب ما من التحفظ والاحتراز حذر انكشاف أمره ، فيكون عرضة للغدر .

وإذا وقعت في هذه الأسواق حصومات في مثل اختلاف في سعر أو اختلاف في تجارة ، فهناك حكّام يلجأ المتخاصمون اليهم للنظر في خصوماتهم وللنظر في كل خصومات أخرى قد تقع على الحاضرين . فيقوم هؤلاء الحكام بفض ذلك النزاع . وقد اشتهر سادات بني تميم بالنظر في الخصومات التي تقع في الأسواق القريبة منهم أو التي تقع في ديارهم ، وكان من أواخر حكّامهم (الأقرع بن حابس)^٣ .

سوق عكاظ في الاسلام :

كانت سوق عكاظ عامرة مقصودة في الجاهلية ، « فلما جاء الاسلام هدم

١ صبح الاعشى (١/٤١٠ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٣١) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، العقد الفريد (٢/٢٠٦) ، البيسان والتبيين (٣/١٠٠) .

٣ صبح الاعشى (١/٤١٠) .

ذلك « ١ . وورد في كتب الحديث : « عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : كانت عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الاسلام تأثموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح في مواسم الحج . قرأ ابن عباس كذا « ٢ . وورد في تفسير الطبري : « قال ابن عباس : كانت ذو المجاز وعكاظ ومتجر الناس في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام تركوا ذلك حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج « ٣ . وورد : « كانوا يحجون ولا يتجرون ، فأنزل الله : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم « ٤ . وتفسير ذلك كما جاء في كتب التفسير والحديث ، وكما سبق أن تحدثت عن ذلك في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند أهل الجاهلية ، ان الجاهليين كانوا يتأثمون من الاتجار في الحج ، فلا يحجون ولا يتجرون ، وتكون تجارتهم في الأسواق المذكورة قبل الحج ، أو في مكة بعد الحج ، وبقوا على ذلك حتى رفع عنهم الحرج بنزول الوحي : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » ٥ ، فرخص لهم في المتجر والركوب والزاد ، وأحل الله لهم الاتجار في الحج ، فصاروا يتبايعون بمكة ، فأثر ذلك على الأسواق المذكورة .

وكان تحديد مواقيت الحج ، وانتشار الاسلام ، ومنع التعرض والتحرش بالناس طيلة أيام السنة ، في جملة العوامل التي قللت من أهمية تلك الأسواق ، فلم يعد الحجاج في حاجة الى الذهب قوافل اليها ، استغلالاً لحرمة الأشهر ، بل صاروا يتجهون الى المواقيت المعينة للحج رأساً ، فيتجرون بمكة ويعودون الى ديارهم ، فقلّت بذلك أهمية تلك الأسواق حتى ماتت .

وسبب آخر ، هو في نظري أهم من كل ما ذكرت . هو أن هجرة الرسول الى يثرب ، وانتصار الاسلام على مكة ، ثم وفاته بيثرب ، واتخاذ الخلفاء الثلاثة الأول إياها قاعدية لهم وليت مال المسلمين ، ثم خروج سادات مكة اليها في

-
- ١ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
 - ٢ ارشاد الساري (٣٧/٤) .
 - ٣ تفسير الطبري (١٦٤/٢ ، ١٦٥) .
 - ٤ تفسير الطبري (١٦٤/٢) .
 - ٥ سورة البقرة ، رقم ٢ الآية ١٩٨ .
 - ٦ تفسير الطبري (١٦٤/٢) وما بعدها) .

حياة الرسول ، وانتقلهم الى الأمصار المفتوحة لادارتها سياسياً وعسكرياً ، أو للاشتغال بها بالزراعة والتجارة والأعمال الأخرى المرهبة، كل هذه العوامل وأمثالها جعلت مكة في الدرجة الثانية بعد (يثرب) ، حتى أن من بقي بالمدينة من الصحابة ولم يغادرها كما غادرها غيرهم الى الأمصار المفتوحة ، وجسدوا أن من أدب الصحبة ملازمة قبر الرسول ، والثوى بها في الحياة وفي الممات ، ولم يقيموا بمكة إلا فترات ، لحج أو لزيارة ، فأثر ذلك على وضعها المالي ، وأزال مكانها القديم في التجارة ، فتغير بذلك كل شيء .

الفصل الخامس بعد المئة

البيع والشراء

أنواع البيع :

وقد تعرض أهل الأخبار لبعض أنواع البيع وطرقها التي كان يستعملها الجاهليون، وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة ما يسمى بـ (الحظ والنصيب) في العهد الحاضر . ونظراً الى ما قد كانت تسببه هذه الأنواع من خصومات ومنازعات بين المشتري وبين البائع ، من بيعهم شيئاً مجهولاً غير معلوم ، والى ما في كثير من هذه البيوع من غرر ، نهى الاسلام عنها ، وجاء ذكرها لذلك في كتب الحديث والفقهاء .

والبيع والشراء ، إما أن يكونا بشروط ، يشترطها أحدهما أو كلاهما عند عقد الصفقة ، ويتم التوافق والتعاقد عليها برضى البائع والمشتري ، أي الطرفين . وإما ألا يكونا بشروط . فإذا اشترط المشتري على البائع شرط حق لإرجاع السلعة اليه ، إن وجد فيها شيئاً مخالفاً للوصف ، ورضي البائع بذلك ، فللمشتري حق لإرجاع السلعة اليه في حدود معقولة ، وقد يعين زمن ذلك الحق وهو ما يحدث في الغالب .

ومن جملة طرق البيع (بيع الحصاة) . وهو بيع ذكر أهل الأخبار أنه كان متبعاً في سوق (دومة الجندل) المنعقدة في أول يوم من شهر ربيع الأول . وقد ذكروا أن هذه المبايعات من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام . وتفسير ذلك أن يقول أحد المتبايعين للآخر : إرم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك

بدرهم ، أو أن يبيع أحد المتبايعين من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لي بكل حصاة درهم ، أو أن يمك أحدهما حصاة في يده ، ويقول : أي وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، أو أن يتبايعا ويقول أحدهما : إذا نبذت اليك الحصاة فقد وجب البيع ، أو أن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ الحصاة ويقول : أي شاة أصابتها فهي لك بكذا^١ ، أو هو أن يقول بعثك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها ، أو بعثك من الأرض الى حيث تنتهي حصاتك . أو أي ثوب من هذه وقعت الحصاة التي أرمي بها فهو لي بكذا ، فيقول البائع : نعم . فيقع البيع لوجود شروط الايجاب والقبول^٢ .

ومن طرق البيع بيع الملامسة ، والمراد باللامسة المس باليد ، وأن يجعل عقد البيع لمس المبيع . وذكر أن بيع الملامسة : أن تشتري المتاع بأن تلمسه ولا تنظر اليه . وذلك كأن يقول : « لمست ثوبي أو لمست ثوبك أو إذا لمست المبيع ، فقد وجب البيع بيننا بكذا وكذا ، ويقال هو أن يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليه ، ثم يوقع البيع عليه » و « قيل : معناه أن يجعل اللمس باليد قاطعاً للخيار »^٣ .

وقيل هو أن يأتي البائع بثوب مطوي ، ثم يطلب من المشتري أن يلمسه ، ثم يقول له : « بعثك اياه بثمن كذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك » . أو أن يقول له : « اذا لمست هذا الشيء فهو بيع لك » . فيكون اللمس نهاية خيار المشتري . وهو يحل بذلك محل النظر الى الشيء الذي سيباع وتدقيقه وتمحيصه للوقوف على مقدار جودته أو بما فيه من عيوب . فهو بيع شرطه اللمس ولا خيار

١ جامع الاصول (٤٤١/١) ، بلوغ الارب (٢٦١/١) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٤/٢) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) .

٢ صحيح مسلم (٣/٥) ، الجصاص (٥٣٠/١) ، اللسان (١٨٣/١٤) ، تاج العروس (٩٢/١٠) ، (حصا) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) .

٣ اللسان (٢١٠/٦) ، صحيح مسلم (٢/٥) وما بعدها ، تاج العروس (٣٤٠/٤) ، (لمس) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) .

فيه^١ . ومن بيع الملامسة ، أن يقول الرجل للرجل : أبيعك ثوبي بثوبك ولا ينظر واحد منها الى ثوب الآخر ، ولكن يلمسه لمساً^٢ .

واختلف الفقهاء في تفسير الملامسة على ثلاث صور : إحداهما أن يكتفي باللمس عن النظر ولا خيار له بعده ، بأن يلمس ثوباً لم يره ثم يشتريه على أن لا خيار له اذا رآه . الثانية ، أن يجعل اللمس بيعاً ، بأن يقول : اذا لمستك ، فقد بعته ، اكتفاءً بلمسه عن الصيغة . الثالثة ، أن يبيعه شيئاً على انه متى لمسه لزم البيع وانقطع خيار المجلس وغيره اكتفاءً بلمسه عن الالتزام بتفرق أو تخاير . وبطلان المبيع المستفاد من النهي ، لعدم رؤية المبيع ، واشتراط نفي الخيار في الأولى ونفي الصيغة في عقد البيع في الثانية ، وشرط نفي الخيار في الثالثة^٣ .

ومن البيوع ، بيع المنابذة . وهو أن يجعل النبد بيعاً . وهو أن تقول لصاحبك : انبذ لي الثوب أو غيره من المتاع ، أو انبذه اليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا . أو هو أن ترمي اليه بالثوب ويرمي اليك بمثله . وهو أن يجعل النبد بيعاً بغير صيغة ، أو أن يجعل النبد قاطعاً للخيار . ويقال له بيع الالتقاء^٤ . وقيل هو أن تقول : إذا نبذت الحصاة اليك ، فقد وجب البيع ، أو أن ينبذ الرجل الى الرجل بثوبه ، وينبذ الآخر اليه ثوبه ، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراض . فيكون النبد وحده هو البيع^٥ .

و (النجش) ، أن يبيع الإنسان ببيعة فتساومه بضمن كثير لينظر اليك ناظر

١ صحيح البخاري (٨٧/٢) ، تاج العروس (٣٤٠/٤) ، (لمس) ، بلوغ الارب (٢٦٥/١) .

٢ ارشاد الساري (٦٤/٤) .

٣ ارشاد الساري (٦٤/٤) ، (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبستين وعن بيعتين ، نهى عن الملامسة والمنابذة في البيع ، واللامس لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا يقبله الا بذلك) ، زاد المسلم (٥١٧/٥ وما بعدها) ، صحيح البخاري (كتاب البيوع ، باب بيع الملامسة) ، (وفي كتاب اللباس ، في باب اشتمال الصماء) ، (باب الاحتباء في ثوب واحد) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، باب ابطال بيع الملامسة) .

٤ تاج العروس (٥٨١/٢) ، بلوغ الارب (٢٦٤/١) وما بعدها) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، ارشاد الساري (٦٤/٤ وما بعدها) .

٥ صحيح مسلم (٣/٥) ، الشوكاني ، نيل الاوطار (١٤٧/٥ وما بعدها) ، اللسان (٥١٢/٣) .

فيقع فيها ، وكذلك في الأشياء كلها . وقيل : النجش في البيع أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها ، ولكن ليسمه غيره فيزيد بزيادته . وقيل أن تمدح سلعة غيرك لبيعها ، أو أن تنفر الناس عن الشيء الى غيره . والغاية من كل ذلك هو غش المشتري وجرّ النفع . لذلك نهى في الاسلام عنه . و(التناجش) في البيع المنهى عنه ، هو التزايد في البيع وغيره^١ . وأن يقول الرجل للرجل بيع فيقول نظر ، أي انظرنني حتى اشترى منك^٢ . والنجش في الشرع ، أن يزيد في ثمن السلعة من غير رغبة ليوقع غيره فيها . فهو بيع غش وخداع^٣ .

ويقال للنجش الفلح . قالوا ، الفلح النجش في البيع ، وذلك أن يطمئن اليك ، فيقول لك بع لي عبداً أو متاعاً أو اشتره لي ، فتأتي التجار فتشتره بالغلاء وتبيع بالوكس وتصيب من التاجر ، وهو الفلاح . وذكر انه زيادة المشتري ليزيد غيره فيغيره^٤ .

ومن طرق البيع أيضاً : البيع ناجزاً بناجز . أي يداً بيده . ومن يبيعهم قول أحدهم بعثك هذا الثوب نقداً بدينار ونسيئةً بدينارين ، وقد ورد في الحديث : لا يجوز شرطان في بيع ، أي مثل هذا البيع^٥ .

والبيعُ مُزَابنة ، وهو بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وبيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر . أو بيع كل ثمر على شجرة بتمر كيلاً . أو يبيع التمر على رؤوس النخل بالذهب والفضة . وقد نهى عنه في الاسلام ، إلا اذا انضح ولا يباع منه إلا بالدرهم والدينار . وذلك لأنه يبيع مجازفة ، ولما يقع فيه من الغبن والجهالة^٦ . وروي عن الإمام (مالك) انه قال : المزابنة كسل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه يبيع بمسمى من مكيل وموزون ومعداد. أو هي

- ١ تاج العروس (٣٥٤/٤) ، (نجش) . «نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن النجش»، البخاري (٦٩/٣ وما بعدها)، (كتاب البيوع)، عمدة القاري (٢٥٨/١١ وما بعدها)، اللسان (٣٥١/٦) ، القسطلاني (٦٢/٤) ، زاد المسلم (٤٨٥/٥) .
- ٢ المخصص (٢٥٤/١٢) .
- ٣ تاج العروس (٣٥٤/٤) ، (نجش) ، عمدة القاري (٢٥٨/١١ وما بعدها) .
- ٤ تاج العروس (١٩٩/٢) ، (فلح) .
- ٥ المخصص (٢٥٤/١٢) .
- ٦ تاج العروس (١٦٦/٥) ، (شرط) .
- ٧ صحيح البخاري (٩٤/٢) ، « كتاب البيوع » ، القاموس (٢٣٠/٤) ، صحيح مسلم (١٣/٥) ، زاد المسلم (٤٧٧/٥ وما بعدها) .

بيع معلوم بمجهول من جنسه أو يبيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي يبيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن ، لأن البيعين اذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع ، وأراد الغابن أن يمضيه ، فتزائنا فتخاصما فتدافعا^١ . وتكون المزابنة في النخل غالباً . وذكر ان سبب ورود النهي عن هذا البيع ، هو انه يؤدي الى ربا الفضل ، إذ الجهل بالمثالة كحقيقة المفاضلة من حيث انسه لم يتحقق فيها المساواة المشروطة في الربوى بجنسه^٢ .

وكان هذا البيع معروفاً عندهم . وذلك أن يبيع رجل ثمر نخله بتمر كيلاً أو بغير كيل ، أو أن يبيع كرمه بزبيب ، فورد النهي عنه في الإسلام ، وإنما نهى عن ذلك لجهل المبيع^٣ . واعتبر هذا البيع نوعاً من أنواع الربا^٤ .

ومن البيوع الجاهلية : المخاضرة ، بيع الثمار خضراً قبل أن يبدو صلاحها . ويدخل فيه بيع الرطاب والبقول وأشباهاها على قول بعض . تُسمي مخاضرة لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخوذ من الخضرة^٥ .

وقد نهى عن (المعاومة) في الإسلام . وهي بيع النخل معاومة . وأن تبيع زرع عامك بما يخرج من قابل . أو أن تبيع ثمر النخل أو الكرم أو الشجر سنتين أو ثلاثاً فما فوق^٦ . فهو بيع السنين ، ولما فيه من غرر ومن بيع للمجهول ، لم يصح هذا البيع في الإسلام^٧ .

و (الطني) : شراء الشجر ، أو بيع ثمر النخل خاصة^٨ . ونهى في الإسلام عن بيع صبرة التمر المجهولة القدر ، أي بيع المبيع بالكومة ، ولا يعلم مكيلته بالكيل^٩ .

- ١ تاج العروس (٩/٢٢٤ وما بعدها) ، البخاري (كتاب البيوع ، في باب بيع المزابنة) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع ، في باب كراء الارض) .
- ٢ زاد المسلم (٥/٤٧٧) .
- ٣ زاد المسلم (٥/٤٨٢) .
- ٤ « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن بيع الثمر بالتمر ، وقال ذلك الربا تلك المزابنة الا أنه رخص في بيع العربية ، النخلة والنخلتين يأخذها أهل البيت . بخرصها تمراً يأكلونها رطباً » ، زاد المسلم (٥/٤٩٤ وما بعدها) .
- ٥ تاج العروس (٣/١٨٠) ، (خضر) ، القاموس (٢/٢١) ، صحيح مسلم (٥/١١) .
- ٦ تاج العروس (٨/٤١٢) ، (عام) .
- ٧ صحيح مسلم (٥/١٧ وما بعدها) .
- ٨ القاموس (٤/٣٥٨) ، تاج العروس (١٠/٢٢٨) ، (طني) .
- ٩ صحيح مسلم (٥/٩) .

ومن ذلك أيضاً البيع المعروف بـ (المجر) ، وهو من بیاعات الجاهلية .
والمجر بیع ما في بطون الخوامل من الإبل والغنم ، وهو ان یباع الشيء بما في
بطن الناقة ، وأن یباع البعير أو غيره بما في بطن الناقة ، ولا یقال لما في البطن
مجرّاً إلا اذا ثقلت الحامل . فالمجر اسم للحمل الذي في بطن الناقة ، وحمل الذي
في بطنها^١ .

ونهى الاسلام عن بیع (حبل الخبلة) ، وهو بیع نتاج الشاة، وبيع الأجل،
فكان الرجل في الجاهلية یبتاع الجزور الى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها ،
أو بیع حبل الكرم قبل أن یبلغ ، ومنه بیع الملاقیح والمضامين . والملاقیح ما في
البطون من الأجنة والمضامين ما في أصلاب الفحول ، وكانوا یبیعون الجنین في
بطن الناقة وما یضربه الفحل في عام أو أعوام . وسبب النهي عنه انه من بیوع
الغرر ، وهو بیع مجهول^٢ .

ومن بیوع أهل الجاهلية : (الغَدَوَى) ، وذلك أن تبیع الشاة بنتاج ما نزا به
الكبش ذلك العام . وقيل كل ما في بطون الخوامل ، وقوم یجعلونه في الشاة
خاصة . أو هو أن یباع البعير أو غيره بما یضرب الفحل ، أو أن تباع الشاة
بما نزا به الكبش . وكان الرجل منهم یشتري بالجمل أو العنز أو الدراهم ما في
بطون الخوامل^٣ .

وأما بیع (الغذی) ، فهو كالسابق أن یباع بنتاج ما نزا به الكبش . وقيل
بل یكون الغذی من الإبل والبقر والغنم^٤ . وأظن أن (الغدی) و (الغذی)
شيء واحد . وقد أخطأ بعض النساخ في حرفي الدال أو الذال ، فصارت الكلمة
كلمتان .

وقد نهى في الحديث عن بیع الملاقیح والمضامين . روي عن سعيد بن المسيب

-
- ١ اللسان (١٥٨/٥) ، زاد المعاد (٢٦٧/٤) ، القاموس (١٣١/٢) ، تاج العروس (٥٣٣/٣) ، (مجر) .
 - ٢ عمدة القاری (٢٦٢/١١) وما بعدها) جامع الاصول (٤٤١/١) وما بعدها) ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، اللسان (١٣٩/١١) ، صحيح مسلم (٣/٥) .
 - ٣ المخصص (٢٥١/١٠) ، القاموس (٢٦٩/٤) ، تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غدا) .
 - ٤ تاج العروس (٢٦٣/١٠) ، (غذا) .

أنه قال : « لا ربا في الحيوان ، وإنما نهى عن الحيوان عن ثلاث ، عن المضامين والملاقيح وحبل الحبلية » فالملاقيح ما في ظهور الجمال ، والمضامين ما في بطون الاناث . وورد العكس . أي الملاقيح ما في بطون الاناث ، والمضامين ما في أصلاب الجمال . وكانوا يتبايعون أولاد الشاء في بطون الأمهات وأصلاب الآباء^١ . و (الرجوع) أن تباع الذكور ويشترى بئمنها الاناث . وقيل بيع الابل بعد الارتجاع منها . و « الرجعة : لابل تشتريها الأعراب ليست من نتائجهم وليست عليها سماتهم » . و « الراجعة : الناقة تباع ويشترى بئمنها مثلها » . والرجعية بغير ارتجاعته ، أي اشترىته من أجلاب الناس ، ليس هو من البلد الذي هو به . وكانوا يربحون من بيع الذكور وشراء الاناث بئمنها ، لأن الاناث تلد ، فيكثر عندهم المال . « قيسل لقوم من العرب بم كثر أموالكم ؟ فقالوا : أوصانا أبونا بالنجع والرجع » . فالنجع : طلب الكلاء ، والرجع أن تباع الذكور ويشترى بئمنها الاناث^٢ . وبذلك يكثرون أموالهم .

وتدخل في البيوعات الجاهلية بيع الرجل ما ليس عنده ، وهو يتضمن نوعاً من الغرر ، فإنه اذا باعه شيئاً معيناً وليس في ملكه ثم مضى ليشتريه ويسلمه له كان متردداً بين الحصول وعدمه ، فكان غرراً يشبه القمار فنهى الاسلام عنه^٣ . وبيع المعدوم لا يدري يحصل أو لا يحصل ولا ثقة لبائعه بحصوله بل يكون المشتري منه على خطر ، فإن البائع اذا باع ما ليس في ملكه ولا له قدرة على تسليمه ليذهب ويحصله ويسلمه الى المشتري كان ذلك شبيهاً بالقمار والمخاطرة من غير حاجة بهما الى هذا العقد ولا تتوقف مصلحتها عليه ، لهذا منع الشارع بيعه ، لا لكونه معدوماً بل لكونه غرراً^٤ .

وقد نهى الاسلام عن بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه . فورد ان الرسول نهى عن أن يستام الرجل على سوم أخيه^٥ . وكان أهل الجاهلية يستامون بعضهم على بعض بما في ذلك استيام الأخوة ، فنهى عنه ، لما قد يحدث هذا الاستيام من فرقة واختلاف بين الأخوة .

- ١ تاج العروس (٢١٦/٢) ، (لحق) ، (٢٦٦/٩) ، (ضمن)
- ٢ المخصص (٢٥٢/١٠) ، تاج العروس (٣٥٢/٥) ، (رجع)
- ٣ زاد المعاد (٢٦٢/٤)
- ٤ زاد المعاد (٢٦٣/٤)
- ٥ صحيح مسلم (٣/٥) وما بعدها

ونهى الإسلام عن التلقي للركبان ، أي عن تلقي البيوع والسلع حتى تبلغ الأسواق . وقد ورد في الحديث : « لا تلقوا الجلب ، فمن تلقاه فاشترى منه ، فإذا أتى سيده السوق فهو بالخيار » . وذلك لأن من تلقاهم يكذب في سعر البلد ويشترى بأقل من ثمن المثل وهو تغرير^١ . وقد نهى عن بيع الحاضر للبادي . وذلك بأن يكون له سمساراً ليكسب منه ، أو أن يطلب الحاضر من البادي أن يترك متاعه عنده حتى يبيعه بسعر أعلى ، وذلك لما في هذا البيع من تغرير ومن ضرر يصيب الناس^٢ .

ونهى الإسلام عن بيوع أخرى من بيوع الجاهلية ، منها بيع (الغرر) ، ويراد به البيوع التي لا يحيط بكنهها المتبايعان ، وهو بيع المخاطرة وهو الجهل بالثمن أو المثمن أو سلامته أو أجله ، ومن ذلك بيع العبد الآبق الذي لا يقدر على تسليمه والفرس الشارد والطير في الهواء ، وبيع السمك في الماء ، وكبيع ضربة الغائص وما تحمل شجرته أو ناقته وما يرضى له به أو يهبه له أو يورثه لإياه ونحو ذلك مما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا يعرف حقيقة مقدارها ، فهو بيع شيء مجهول^٣ . وقد كانت من البيوع الشائعة بين الجاهليين تفتناً في الغش ، وفي الكسب من أي طريق كان .

وقد عرفوا بيعة الغائص ، بأن يقول الغائص في البحر للتاجر: أغوص غوصة ، فما أخرجت فهو لك بكذا ، فينتفان على ذلك . وقد نهى عنه لأنه غرر^٤ . ومن البيوع الجاهلية : (الجس) ، وهو بيع 'عرف' بسوق صنعاء . فإذا تعاقد شخصان على سلعة ، ووافقا على البيع ، جس أحدهما يد الآخر ، علامة على صحة البيع^٥ .

ومنها : (السرار) . فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريده ، أشركه في الربح^٦ .

- ١ صحيح مسلم (٥/٥) .
- ٢ صحيح مسلم (٦/٥) .
- ٣ عمدة القاري (٢٦٢/١١) وما بعدها ، جامع الاصول (٤٤١/١) وما بعدها ، زاد المعاد (٢٦٦/٤) ، صحيح البخاري (٨٧/٢) ، « كتاب البيوع » .
- ٤ تاج العروس (٣٥٠/١) ، (ضرب) .
- ٥ المحبر (ص ٢٦٦) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٤/٢) .
- ٦ المحبر (ص ٢٦٧) ، الازمنة والامكنة ، للمرزوقي (١٦٤/٢) .

وهناك نوع من البيوع يقال له (الجراف) ، وهو أخذ الشيء بالحدس بلا كيل ولا وزن ولا عدداً .

وقد عرف (بيع المزايدة) عند الجاهليين كذلك^٢ . وهو أن يعرض ما يراد بيعه للبيع فيتزايد من يريد شراؤه على ثمنه ، حتى يقف على آخر من يقدم أكبر سعر له^٣ .

ومن البيوع بيع (العينة) ، أن يشتري التاجر بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بضمن معلوم ويقبضه ثم يبيعها من طالب العينة بضمن أكثر مما اشتراه الى أجل مسمى ، ثم يبيعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن الذي اشتراها به ، فهذه عينة . وسميت عينة لحصول النقد لطالب العينة . وذكر ان العينة ، اذا باع التاجر من رجل سلعته بضمن معلوم الى أجل معلوم ، ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن الذي باعها به . وللفقهاء كلام في هذا البيع^٤ . وقد كانوا يربحون من (العينة) ، قال « عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكان من سادة قريش : « أغد غداً الى السوق ، فخذ لي عينة » ، فغدا ابنه فتعين من السوق عينة لأبيه ، ثم باعها ، فأقام اياماً ، ما يبيع في السوق طعاماً ولا زيتاً غير ابنه من تلك العينة . وربح منها ربحاً طيباً^٥ .

وقد كان في جملة البيوع التي نهى عنها الرسول ، بيع حاضر لباد ، والبادي هو الذي يكون في البادية ، مسكنه المضارب والخيام ، والحاضر ساكن الحضر ، وصورة البيع للبادي أن يقدم غريب من البادية بمحتاج لبيعه بسعر يومه ، فيقول له بلدي : اتركه عندي ، لأبيعه لك على التدريج بأعلى منه . أو أن تشتري السلع من الأعراب الوافدين على القرى وهم في طريقهم الى السوق وأماكن البيع بأثمان منخفضة ، ثم عرضها في السوق واغلاء أثمانها فيها ، أو تشتري السلع منهم ، وهي في السوق وعرضها مرة أخرى للبيع ، لكسب الفرق بين السعرين . وقد نهى الإسلام عن هذا البيع ، لما فيه من احتكار واضرار بالمصلحة العامة؛ ليكتسب

- ١ شمس العلوم (- ١ ق ٢ ص ٣٣٠) .
- ٢ القسطلاني (٦١/٤ وما بعدها) .
- ٣ اللسان (١٩٩/٣) .
- ٤ تاج العروس (٢٩١/٩) ، (عين) .
- ٥ كتاب نسب قريش (٣٠٤) .

بذلك نفر محدود من الناس . وللفقهاء في هذا البيع كلام وآراء^١ .

وقد كان الناس يلجأون الى أساليب غير حميدة من أساليب التلاعب بالأسعار ، وغش المشترين والتحايل بالبيع ، كأن يأتي البائع بجاعة من أصحابه يتظاهرون بالشراء وبالتكالب على السلعة لرفع السعر ، حتى يدفع الحاضرين على رفع السعر ، فيرسو البيع عليهم . وبذلك يغش البائع المشتري . وهو بيع نهبي عنه في الاسلام .

ومن البيوع التي تتضمن الغش والخداع بيع التصرية . وكان من عادة العرب اذا أرادوا بيع شاة أو ناقة تركوا أياماً لا يحلبونها ، فيبقى اللبن في ضرعها ، فيكبر ، فيعرضها البائع للبيع ، ويظن المشتري ان كبر ضرعها ووجود اللبن بغزارة فيه ، هو بسبب ان تلك الشاة أو الناقة حلوبة ، فيشتريها ، فيغش . ونظراً الى ما في هذا البيع من غش وخداع نهبي عنه في الاسلام^٢ ، وجعل خيار البيع ثلاثة أيام ، فإن ردها ردت معها صاعاً من تمر ، وإن شاء أمسكها . ويقال لهذا البيع أيضاً بيع المصرة^٣ .

وقد يشتري الشركاء سلعة رخيصة ، ثم يتزايدون بينهم حتى يبلغوا غاية ثمنها ، فيشتريها من يرسو الثمن عليه ، ويأخذها . ويقال لذلك : (التقاي) . ولم يرد الإسلام بأساً بذلك . وفي حديث ابن سيرين لم يكن يرى بأساً بالشركاء يتقاوون المتاع بينهم فينمي ويزيد^٤ .

ومن البيوع التي نهبي عنها في الإسلام (الإعراب) . أن يقول الرجل للرجل : إن لم آخذ هذا البيع بكذا ، فلك كذا وكذا من مالي^٥ .

١ عمدة القاري (٢٥٨/١١) ، ارشاد الساري (٧٢/٤) وما بعدها .

٢ صحيح البخاري (٨٧/٢) ، « وفي حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم : من اشترى مصرة ، فهو بخير النظرين ، ان شاء ردها ورد معها صاعاً من تمر ٠٠٠ لا تصروا الابل والغنم » ، اللسان (٤٥٨/١٤) .

٣ صحيح مسلم (٤/٥) ، تاج العروس (٢٠٩/١٠) ، (صري) .

٤ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوو) .

٥ تاج العروس (٣٧٢/١) ، (عرب) .

الخلافة :

ومن البيوع الفاسدة الخلافة . وتقوم على المخادعة ، والخلافة المخادعة . وفي الحديث : أن بيع المحفلات خلافة ، ولا تحلّ خلافة مسلم . والمحفلات التي أُجمع لبنها في ضرعها . وفي حديث النبي ، أنه قال لرجل كان يخدع في بيعه : إذا بايعت ، فقل لا خلافة ، أي لا خداع^١ . وذلك لأن بعض الباعسة كانوا يخادعون المشتري في بيوعهم .

ومن بيوع أهل الجاهلية : بيع المواصفة ، وهو أن توصف الرجل بالسلعة ليست عندك . وقد أبطل هذا البيع بعض الفقهاء ، وأجازه بعض آخر ، وإذا وافقت الساعة الصفة^٢ .

وقد يتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بدأ من أن يشتركوا وهم كارهون . وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه^٣ .

ومن بيوع أهل الجاهلية بيعهم الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح . وقد نهى عنه في الاسلام ، إلا سواء بسواء ، أي إلا متساوين ، وبدأ بيد . ويسمى هذا البيع (مراطلة) إن كان بالوزن ، ومبادلة إن كان بالعدد^٤ . وأما بيع الذهب بالفضة ، والفضة بالذهب ، فقد أبيع ذلك في الاسلام كيف شاء المتبايعون ، بتفاضل أو بتساو ، لأن بيع الذهب بالفضة والعكس يسمى (صرفاً) ويجوز فيه التفاضل ، لكن يشترط فيه التقابض بدأ بيد^٥ .

ويظهر من منع الاسلام لبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلا أن يكونا متساوين وبدأ بيد ، أي مقبوضين ، ان أهل الجاهلية كانوا يبيعون الذهب بذهب

- ١ اللسان (٣٦٣/١) ، (خلب) .
- ٢ تاج العروس ٥ (٣٩/٥) ، (روض) .
- ٣ المحبر (٢٦٤) . (أسواق العرب المشهورة في الجاهلية ومبايعتهم فيها) .
- ٤ قال ابن عاصم في تحفة الحكام :
والجنس بالجنس هو المراطلة بالوزن أو بالعد فالمبادلة
- ٥ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٤٧٠/٥ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٦م) .

يزيد عليه حين يؤديه في أجله المحدود ، فاعتبر الاسلام ذلك علة من علل الربا ، وعلته هنا الثمينة ، ولو تبايع الناس بالجلود لنهاى عن التفاضل فيها . والعلة في الأربعة الأخرى الادخار للقوت أو ما يصلح للقوت . وعلة الربا هي النقدية أو الطعم أو الاقنيات^١ .

ومن يبيع أهل الجاهلية يبيع حق الانتفاع ، مثل أن يبيع بائع لمشتري حق الانتفاع من ظهر دابة ، بأن يستفيد من ركوب ظهر الدابة التي اشتراها ، ولكن الدابة تكون مع ذلك لصاحبها . ومن ذلك اشتراط البائع على المشتري ظهر الدابة الى مكان معين^٢ .

وقد كان الباعة الجاهليون يفعلون في أسواقهم ما يفعله باعة أيامنا من صخب في السوق ، ومن لغط ومن قسم على جودة السلع ورخص أسعارها ، يريدون التأثير على المشتريين وحملهم على الشراء . وقد لاحظ الرسول ما في هذا الصخب من ضرر ، وما في هذا النوع من الدعاية للبضاعة من غش ، فنهى عنه^٣ .

وقد لخصت بعض كتب الحديث والفقهاء البيوع وعرفتها على النحو الآتي :
البيع المطلق إن كان يبيع العين بالثمن ، والمقايضة إن كان عيناً بعين ، والسلم إن كان يبيع الدين بالعين ، والصرف إن كان يبيع الثمن بالثمن ، والمرابحة إن كان بالثمن مع زيادة ، والتولية إن لم يكن مع زيادة . والوضيعة إن كان بالنقصان ، واللازم إن كان تاماً ، وغير اللازم إن كان بالخيار ، والصحيح والباطل والمكروه^٤ .
والبيع نقداً ، وهو خلاف النسئة . وهو أن يشتري الرجل شيئاً ، فيعطي البائع نقداً معجلاً^٥ . أما يبيع النسئة ، فهو البيع المؤخر ، أي الذي يدفع ثمنه مؤخراً^٦ .

وقد اتخذ الاسلام قاعدة عامة في البيوع ، هي : بطلان بيع المبيع الذي يقوم على بيع المجهول كماً وكيفيةً وقبل التأكد منه ، أي بيع المجهول ، لما في ذلك

- ١ زاد المسلم (٤٧٢/٥) .
- ٢ ارشاد الساري (٤٣٣/٤) .
- ٣ عمدة القاري (باب كراهية الصخب « السخب » في السوق) ، (٢٤٢/١٠) .
- ٤ عمدة القاري (١١/١٥٩ ، ١٧٥) ، « كتاب البيوع » .
- ٥ تاج العروس (٢/٥١٦) ، (١/٤٥٤) ، « طبعة الكويت » ، « نساء » ، البخاري (٣/٥٩) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القاري (١١/١٨٢) ، (كتاب البيوع) .
- ٦ تاج العروس (١/٤٥٤) ، (نساء) ، (طبعة الكويت) .

من التغرير ، أي الخداع في البيع والغبن ، ولما يقع من هذه البيوع من أضرار
ولما تحدثه من خصومات ومجادلات ومن تلاعب في الأسعار ومن تأثير ذلك في
الناس المنتفعين . فأبطل بيع المبيع قبل القبض ، إذ كان الجاهليون يتبايعون بالذهب
والطعام وهو مرجأ ، يشترون الطعام من الركبان جزافاً ، ثم يبيعونه في مكانه ،
للكسب، فنهى الرسول عن هذا النوع من البيع ، حتى يؤووه الي رحالهم ويحولوه،
وفي رواية ويكتالوه ، وأمر الرسول بضرب من يبتاع الطعام جزافاً^١ ، كما نهى
عن معظم البيوع المذكورة واعتبرها باطلة ، لا تعتبر عقداً صحيحاً مشروعاً لمن
عقده .

والبيوع المذكورة وإن كانت بيوعاً بنيت في الواقع على إيجاب وقبول في البيع
وتراض من الطرفين وبموافقة بحصول البيع من المتعاقدين : البائع والمشتري ، غير
ان هذه البيوع كانت تحدث منازعات أحياناً بين الطرفين ، وتنتج ضرراً لذلك
نهى عنها في الاسلام وقيّد بعضها بقيود حتى تحسد من وقوع المخاصمات قدر
الامكان ومن وقوع الغلط في السلعة ، من حيث الجنس والنوع أو من حيث
الصفة ، ومن وقوع الغبن والتغرير .

الحكرة :

الحكرة وتعرف أيضاً بالاحتكار ، ويراد بها حبس الطعام ليربص به الغلاء .
وذلك للحصول على كسب زائد . وقد كان أهل المال من الجاهليين يقصدون
الأسواق ، فيشترون ما يرون فيه ربحاً في المستقبل من طعام أو ما شابه ذلك من
مواد ضرورية ، ثم يخترنونها ، ويبيعونها عند حلول الموسم أو وقوع مجاعة أو
فرص مؤاتية بسعر مرتفع ، غير مباليين بما في ذلك من ضرر ومن استغلال لأحوال
الناس . وقد ورد النهي عن هذا البيع في الإسلام^٢ .

ومن التجار المتمكنين من كان يشتري حمولة قافلة كاملة ، ثم يحتكرها لبيعها

١ صحيح مسلم (٧/٥ وما بعدها) .

٢ « في الاحتكار والتسعير » ، جامع الاصول (٢٢/٢ وما بعدها) ، اللسان (٢٠٨/٤) ،
(حكر) ، تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حكر) .

وقت الحاجة ، أو يدخرها ويبيع منها على التفريق بغية الربح ، فلا ينافسه على ربحها أحداً . ويجعل لما اشتراه السعر الذي يشاء .

ومن التجار من كان يتلقى (الركبان) ليشتروا ما معهم من طعام ، وذلك قبل وصولهم السوق^٢ . فيتضرر بذلك تجار الأسواق ، والمستهلكون ، أي المشترون ، ومن هذا القبيل ، خروج الحضر ، لاستقبال البدو ، أي الأعراب ، الذين يقصدون الحواضر ، لبيع ما عندهم من سلع ، فكان أصحاب المال يستقبلونهم قبل وصولهم السوق ، وقبل اتصالهم بالتجار ، ووقوفهم على السعر ، فيشترون منهم ما يحملونه من سلع ، لبيعها في السوق^٣ .

شهود البيع :

وقد كان من الجاهليين من يشهد (شهوداً) على التبايع ، أي يجعل له شهوداً يشهدون على صحة المعاملة ، ومنهم من كان يكتب التبايع وشروطه بكتاب ، حتى لا ينكل أحد المتبايعين عن البيع ، ويلحق الضرر بالطرف الآخر . إذ يكون الكتاب حجة وشاهداً وإلى ذلك أشير في القرآن الكريم : « وأشهدوا إذا تباعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد »^٤ ، وذلك منعاً لما قد يحدث من خلاف ونزاع بين المتكاتبين ، فيرجع عندئذ إلى ما هو مكتوب ويعمل بموجبه .

فسخ البيع :

والبيع عقد فيه إيجاب وقبول ، فلا يجوز فسخه والتخلص منه من غير سبب مغلٍ بعقد شرط البيع . أما إذا حصل تراض على فسخ الصفقة فذلك مباح لأنه قد حصل عن رضا وموافقة واختيار ، دون إكراه ولا إجبار . ويعبر عن فسخ الصفقة ب (تقاييل البيع) . يقال : تقايلا بعدما تبايعا أي تاركا . وأقلته

- ١ اللسان (٦٢٤/٤) ، (عير) .
- ٢ ارشاد الساري (٧٤/٤) .
- ٣ ارشاد الساري (٧٢/٤) وما بعدها) .
- ٤ البقرة ، الآية ٢٨٢ ، تفسير الطبري (٨٨/٣) .

البيع إقالة : فسخه . وعاد المبيع الى مالكة والتمن الى المشتري، اذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما^١ .

العربون :

و (العربون) ما عقد به البيع^٢ . ويعبر عنه بـ (عربن) في المسند . وتقابل هذه اللفظة لفظة (العربان) في عربية القرآن الكريم^٣ . وهو ما يقدمه المشتري للبائع لعقد البيع ، اذا كان البيع نسيئة ، حتى يسلم تمام الذي الذي اتفق عليه . ولهذا لا يكون عربوناً اذا تم البيع يداً بيد ، أي اذا دفع الثمن كاملاً في مجلس البيع ، وتم البيع والاستلام ، إذ لا حاجة عندئذ اليه ، لأن العربون وديعة تقدم للائتمان ، لتكون وثيقة للبيع ، ولقبول المشتري السلعة ، فلا يحق له النكول عن البيع وإلا خسر عربونه ، وليكون ضماناً للبائع على البيع ، فإذا نكل المشتري وامتنع عن الشراء خسر عربونه ، وصار حقه للبائع بدل النكول . ولهذا يكون العربون في الغالب مبلغاً يرضي البائع ، أي متناسباً مع قيمة البيع^٤ .

وكما يكون (العربون) في البيع يكون في الاجارة ، وفي العمل . وذلك أن يقدم الرجل ربّ العمل أو المال الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينهما حتى يتوافيا بعد ذلك^٥ . فإذا أخلف رب العمل أو المال في وعده وخاس في عهده ، صار العربون من حق الصانع أو التاجر .

ويعبر عن العربون بلفظة (ودعت) في المسند . ويراد بها الوديعة^٦ . والوديعة في عربيتنا ما استودع . يقال : استودعه مالاً وأودعه إياه : دفعه اليه ليكون عنده وديعة^٧ . فالوديعة في هذه العربية قد تؤدي معنى العربون ، وقد تؤدي معنى الرهن والرهنينة ، وقد تؤدي معنى الاستيداع مطلقاً ، أي ايداع شيء عند شخص

- ١ اللسان (١١/٥٧٩ وما بعدها) ، (قيل) .
- ٢ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عربن) .
- ٣ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
- ٤ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
- ٥ تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
- ٦ REP. EPIGR. 3911.
- ٧ اللسان (٨/٣٨٦) ، (ودع) .

وحفظه لديه . وأنا لا أستبعد أن يكون هذا المعنى ، هو معناها في لغة المسند أيضاً .

ويقال للعربون ، الأربون كذلك . وهو ما عقد به المبايعة ، أو البيعة من الثمن . وفي الحديث أنه نهى عن بيع العربان ، وهو أن يشتري السلعة ويدفع الى صاحبها شيئاً ، على أنه إن أمضى البيع حسب من الثمن ، وإن لم يمض البيع كان لصاحب السلعة ، ولم يرتجعه المشتري . وذكر هو القليل من الثمن أو الأجرة يقدمه الرجل الى الصانع أو التاجر ليرتبط العقد بينها حتى يتوافيا بعد ذلك . فكما أنه يكون في البيع يكون في الاجارة . وللعلماء الفقهاء آراء في جواز أو عدم جواز البيع بالعربون^١ .

و (الكلالة) النسبثة والعربون ، أي السلفة . وفي الحديث نهى عن الكالء بالكالء ، يعني النسبثة بالنسبثة^٢ .

و (المسكان) العربون كذلك . وجاء في الحديث النهى عن بيع المسكان ، وهو أن يشتري شيئاً فيدفع الى البائع مبلغاً على انه إن تم البيع احتسب من الثمن ، وإن لم يتم كان للبائع ولا يرتجع منه^٣ .

الخيار في البيع :

والخيار في البيوع طلب خير الأمرين : إما الامضاء وإما البيع أو فسخه^٤ . فقد يرى البائع أو المشتري في السلعة المشتراة رأياً ، لم يكن له حين عقد صفقة البيع . وللفقهاء كلام عليه ، وهو أنواع عندهم ، منها خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار الرؤية وهو شراء ما لم يره على انسه بالخيار إذا رآه ، وخيار العيب ، وخيار تلقي الركبان ، وخيار تفريق الصفقة وتفريقها بتعددتها بالابتداء ، وخيار العجز عن الثمن ، وخيار فقد الوصف المشروط في المبيع ، والخيار فيما رآه

١ « وفي حديث عمر أن عامله اشترى دارا للسجن بأربعة الاف، وأعربوا فيها اربعمائة، أي أسلفوا » ، تاج العروس (١/٣٧٦) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلا) .
٣ تاج العروس (٧/١٧٧) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .

قبل العقد اذا تغير عن صفته ، وغير ذلك^١ . وقد جعل بعضهم الخيار ثلاثة
أضرب : خيار المجلس ، وخيار الشرط ، وخيار النقيصة^٢ .

وقد يشترط في البيع ألا يضمن عهده . ويقال لهذا النوع من البيع : (المسئ) و
(المسئ) ، هي البيعة التي لا يتعلق بها تبعه ولا عهده . يقال : أبيعك المسئ
لا عهده . أي تملس وتنفلت ولا ترجع إلي . ويقال في البيع مسئ لا عهده ،
أي قد اتمس من الأمر لا له ولا عليه^٣ .

صفات البيع :

وإذا تم عقد بيع بين بائع ومشتري ، يضع أحدهما يده في يد الآخر ، دلالة
على قبول البيع وتماحه . ومن هنا قيل للتبايع الصفق . وورد : تصافقوا ، أي
تبايعوا^٤ . وبذلك يتم البيع ويكون في عرفهم بيعاً صحيحاً .

وكانت عاداتهم أنهم اذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، دلالة على عقد البيع
وحصول الرضا به ، ووقوع الايجاب والقبول من البائع والمشتري ، ومن هنا قيل
للبيعة صفقة ، والصفقة تكون للبائع والمشتري^٥ . ومتى تم التصاق فلا يجوز لأحدهم
النكول عن البيع ، لأنه عقد عقداً وأمضى أمراً ، وكان عليه أن يعمل رأيه
قبل المصافقة ، واذا كانت البيعة على شيء مجهول ، كأن تكون السلعة المباعة قد
خبثت في خباء وبيعت مجهولة ، ووافق المشتري على شرائها على تلك الحالة ، ثم
تبين أنها دون الثمن بكثير ، فلا حق للمشتري برد البيع ، لأنه حين شرائه تلك
السلعة كان يعلم أنها مخبأة وانها تباع ببيع الشيء المجهول . وقد رضي بالبيع
بالمصافقة ، فلا حق له اذن برفض السلعة .

١ ارشاد الساري (٤٢/٤) .

٢ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .

٣ قال الراجز :

لما رأيت العام عاماً أعيا وما ربيع مالنا بالمسئ

تاج العروس (٤/٢٤٩) ، (ملس) ، اللسان (٦/٢٢١) ، (ملس) .

٤ اللسان (١٠/٢٠٠) وما بعدها ، (صفق) .

٥ تاج العروس (٦/٤٠٩) .

الدين :

وقد لعبت الديون دوراً خطيراً في الحياة العامة في الجاهلية وفي الحياة الاقتصادية بصورة خاصة ، لاضطرار التجار الى التعامل بالدين ، وكذلك الباعة والمشتريين . وتلعب الحاجة الدور الأول في التداين ، فلولاها لما استدان مدين .

وقد استدان أصحاب المال بعضهم من بعض أيضاً ، لتمشية أمورهم المالية ، ولتوسيع رأسهم بالدين ، بتشغيله للحصول على ربح كبير منه . وذلك على نحو ما يفعل التجار في هذا اليوم ، من التداين من البنوك ، لتشغيل ما يستقرضونه منها في أعمال تجارية تأتي اليهم بأرباح تزيد كثيراً على مقدار الفائدة التي ستدفع للبنوك .

وقد أشير الى الدين في القرآن الكريم . ورد في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل »^١ . يعني « يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا تداينتم يعني إذا تبايعتم بدين أو اشتريتم به أو تعاطيتم أو أخذتم به الى أجل مسمى . يقول الى وقت معلوم وقتموه بينكم . وقد يدخل في ذلك القرض والسلم في كل ما جاز السلم شري أحل بيعه ، يصير ديناً على بائع ما أسلم اليه فيه ، ويحتمل بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة . كل ذلك من الديون المؤجلة الى أجل مسمى ، إذا كانت آجالها معلومة بحد موقوف عليه . كان ابن عباس يقول : نزلت هذه الآية في السلم خاصة »^٢ .

و (السلم) الذي يشير (ابن عباس) اليه ، هو (السلف) . وأسلم وأسلف بمعنى واحد^٣ . والسلف القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض ، غير الأجر والشكر ، وعلى المقرض رده كما أخذه^٤ .

والدين في تعريف العلماء ما له أجل ، وما لا أجل له فقرض . وبينها وبين

١ الآية (٢٨٢) .

٢ تفسير الطبري (٧٦/٣) .

٣ تاج العروس (٣٣٧/٨) ، (سلم) .

٤ تاج العروس (١٤٣/٦) ، (سلف) .

السلم فروق عرفية^١ . والقرض ما تعطيه من المال لتقضاه^٢ .
وقد كان من الصعب دفع الديون أو استحصالها ، للأحوال الاقتصادية السيئة
التي قد تحيط بالمدين . فإذا أخذ الرجل الدين أكله ، فإذا أراد صاحب الدين
حقه لواه به ، أي مطله . ومنه المثل : الأخذ سلجان والقضاء ليان^٣ .

المنحة :

والمنحة العطيّة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً ، لا قرضاً ولا عارية ، فتكون
له . وقد تكون اعارة للاستفادة من منفعة ، ثم تعاد . ومن هذا القبيل منحة
الأرض . فقد تمنح هبة ، فتكون لمن وهبت له ، يستغل منفعتها ، وله ان يبيعها
متى شاء ، لأنها هبة وهبت له ، فصارت في حكم ملكه ، وقد تستغل إعارة
لأجل يتفق عليه ، أو بغير أجل ، يستردها صاحبها متى شاء وأحب . ومن المنح ،
منح الإبل ، للاستفادة من وبرها وألبانها وولدها ، والسفر عليها ، وكرائها
للقوافل وللأشخاص . والمنحة المعارة مردودة . وقد ورد في الحديث : المنحة
مردودة ، والعارية مؤداة^٤ . وورد ان المنحة عند العرب على معنيين : أحدهما ان
يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فتكون له . وأما المنحة الأخرى ، فإن يمنح
الرجل أخاه ناقة أو شاة يجلبها زماناً وأياماً ثم يردها . وهو تأويل ما ورد في
الحديث من قوله : المنحة مردودة والعارية مؤداة^٥ .

-
- ١ تاج العروس (٢٠٧/٩) ، (دين) .
 - ٢ تاج العروس (٧٦/٥) ، (قرض) .
 - ٣ تاج العروس (٥٩/٢) ، (سلج) .
 - ٤ تاج العروس (٢٣٢/٢) ، (منح) .
 - ٥ تاج العروس (٢٣٢/٢) ، (منح) .